خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

١

في ذات صباح من ابهى ايام حزيران ظهرت عربة يجرّها ثلاثة من الخيل الضوامر على الطريق الممتدّة من بيروت الى دمشق وكانت الخيل تاهث اعياء وقد تصبّبت عرقاً راغياً وسنابكها تنشب في الارض فتثير الغبار الملبّد بينما الحوذيّ ينشطها بصوت يشبه الطمطمة والكلاب تنبحها من دكانٍ منفردة او بيت معتزل والقنابر تنفر من بين السنابل وتحلّق في الهواء صافرةً . هذا والشمس عند شروقها ارسلت اشعّتها الى العربة فرسمت لها من الظلّ صورةً تتابعها طائرةً وراءها بحركات غريبة بين الاشجار العارية والشجيرات الزمنة التي تلوح حيناً بعد حين على شفا الطريق

مضى على الخيل نحو الاربع ساعات بعد مزايلتها بيروت راقيةً في مدارج الجبل تطوي الرُبى بين الخَيزلى (مشية متثاقلة) والهَيذبى (مشية ثقيلة) او تراوح بين الخبب والتقريب (مشيٌ سريع) لا تقف الّا لحظة ريثما تتنفّس الصُعَداء حتى اداها المسير الى خانٍ منفردٍ شرقيَّ الطريق فاذا بالسائق وهو زنجيٌّ لامع السواد اوقفها وانحدر الى الارض اسرع من البرق وفتح باب العربة قائلًا : وصلنا يا سيدي هذا خان ابو القرَيه . فسُمع من الداخل صوتٌ لا تُحدُّ لهجتُه . مكرراً « وصلنا » ثمّ خرج رجل طويل القامة وفي يسارهِ خريطة حوت لا شكّ بعض لوازم السفر . فمدَّ السائق يده ليحملها عنهُ فامتنع هذا واخذ من جيبهِ قطعة من الذهب ناولهُ اياها . فبرقت عينا الحوذيّ سروراً واكثر من علائم الشكر وعبارات الامتنان عارضاً نفسهُ لكل خدمة . ولمّا لم يؤانس من الرجل اقبالًا عليهِ عمد الى خيلهِ يكشط عنها رغوة العرق والغبار الملبد وهو يدعوها بالطف الاسماء ويخاطبها بارقّ العبارات ريثما عاد اليها الرمق . فبادر الى بئر هناك غربيَّ الطريق وجاء بماء صبّهُ على مشافرها ودفقهُ بين قوائمها كل ذلك في لحظة . ثم استوى على كرسيّهِ وفرقع بسوطهِ ايذاناً بالرحيل والتفت الى المسافر قائلًا « انا راجع سيدي الى بيروت امر خدمة » فكان الجواب « مع السلامة » . فضغط بالعنان على الخيل يمنةً فمالت وزجرها فرسمت نصف دائرة تستقبل بوجهها بيروت وألهبها ضرباً

بالسوط فطارت تنهب الارض منحدرة في الوهاد الى ان توارت وراء اكمة فلم يبقَ منها اثر الّا زوبعة غبار ثارت ثم ركدت ولم يعد يُسمع منها الّا فرقعة السوط وهدير ردّدها صدى الروابي حيناً وخمد

امّا المسافر فمشى نحو دكانٍ هناك تلاصق الخان وكان الدكاني بصر بالعربة ورآهُ نازلاً منها فأبدى حركات مختلفة اشارةً الى انهُ يصفّ الاواني ويهيّئ ما يلزم وبادر احتفاء بالقادم الى لقائهِ واكثر من التزلّف اليه وحمل عنهُ الخريطة وقدّم لهُ كرسيًّا من الخشب قرب طاولة قد اكل الدهر عليها وشرب. وسألهُ ان يأمر بما يرغب وعدَ لهُ قبل رجع النفس من المأكول والمشروب الوانًا واصنافًا. فطلب الرجل شرابًا مبرّدًا وجلس يتأمل ما حواليه

وكان طويل القامة كما سبق القول يناهز الخمسين عامًا وربما ظنّ الرائي انهُ جاوز الستين لو لم يدلّ نشاطه وبرق عينيه وابتسام ثغره انّ قلبه انضر شبابًا من وجههِ. على انهُ لعب البياض بلمّتهِ وشاربهِ الكثيف وتجعّد جبينهُ ووجنتاهُ وبدت على محيّاه امارات عياء لا يمكن لها وصف وهي آثار ما قاساه من الاكدار والمشاق في صباه منبئة بحلول الشيخوخة قبل اوانها. بيد انهُ قويّ البنية راسخ القدم. وقد كان على رأسهِ قبعة بيضاء يلبسها الاوربيون في البلاد الحارّة وهو غاص في صدرية وسترة من الجوخ الاسمر وبنطلون من الكتان الابيض ورانّين (طماقات) من الجلد الرمادي حتى لا يشكّ من رأى زيّهُ انهُ جوّالٌ انكليزي

فجاءهُ الشراب بعد ان اكثر الدكاني وولدان لهُ من الحركة ذهابًا وايابًا وهو يراقب الجميع بانعطاف ولسان حاله يقول: أليس فيكم من يعرفني أليس من يخبرني عنها. ولمّا لم يجد من يدرك معناه سعى في مبادلة الحديث فطلب نارجيلة لها قلب طويل من الخشب المرصع بعرق اللؤلؤ فوقهُ راس من النحاس الاصفر اللامع. فما لبث ان اقبل الدكاني حاملاً نارجيلةً من الزجاج الملوّن ويلتفّ عليها متلويًا كالافعى ماربيش يروق العين منظره في طرفه حلقة من الكهرباء. فوضعها على الارض وحلّ الماربيش وثنى طرفه وقدّمهُ بكل احترام للضيف قائلاً « هاك سيدي اركيله لا يوجد مثلها في البلاد ». وكانت تلك الفخر مقتناه التحفةُ بها احد المسافرين. فسألهُ الغريب: اوَ ليس عندكم نارجيلات من نحاس كالبيضة او من جوزة الهند ؟

— لم نعد نستعملها من عشرين سنة

— عشرين سنة ؟ قال الرجل ذلك متنهدًا ثم اردف: وما حلّ بالنوفرة وبصورة نابوليون التي كانت معلّقة على الجدار ؟

فنظر اليه الدكاني باندهاش ثم قال: انت عارف كل شيء. كانك قضيت عمرك في هذه الضيعة. لا يخفاك ان صاحب المحل غيّر من سنتين وبدّل اشياء كثيرة ومن الجملة هدم الفسقيّة والنوفرة وحوّل الماء الى الجنائن. ولمّا كلّس الحيطان رفع الصورة لانها صارت قديمة وعلى ظني اصبحت الدكان احسن من قبل. قال هذه العبارة بلهجة افتخار ونظرة معنوية

لكنّهُ رأى الغريب هزّ رأسه للنفي اشارة الى انهُ لا يوافقهُ على عبارته فاردف كلامه بقوله: امّا الصورة فهي لم تزل باقية عندنا مطروحة في الزوايا. فشرقت عندئذٍ اسارير وجه الغريب ودخل معهُ الى حيث اشار ثم عاد يحمل الصورة ويتأملها بلهفة وقد دار به ابنا الدكاني يحدقان اليه بدهشة ويحوّلان عنهُ الى ابيهما نظر مستنهم. ولا ريب انهُ اخذ منهُ الفرح مأخذه اذ كانت تتلى على وجهه اساطير الحبّ والفوز ويومض من عينيه المغرورقتين بالدموع برق السرور حتى ان الصبيين مالا اليه ايّ ميل. فأخذ بيديهما الناعمتين وقال: تستغربان ما بدا مني ولا يتضح لكما سرّ ما يخامرني من التأثر لمرأى هذه الصورة. فاعلما اني انا ايضًا ربيت هنا صغيرًا وطالما رافقت ابي الى هذا المكان فكم قضيت ساعات ألعب بالنوفرة وأمتّع العين بمنظر الماء تتكسّر عليه اشعة الشمس فيتناثر دررًا غوالي في الفسقية وانا ارقص طربًا لهذا المشهد البديع. امّا الصورة فكنت احبّ التأمل فيها وتقرّ عيني بمنظر هذا البطل العظيم. واليوم امسى الصبيّ رجلًا طاعنًا في السنّ وعلا البياض راسه وزالت نضارة وجهه. ذاك الصبيّ ابعدتهُ صروف الدهر عن اوطانه وطرحتهُ مطارح الاسفار الى مجاهل افريقيا الجنوبية فقضى فيها عشرين سنة ولكنهُ لا يزال يذكر النوفرة والصورة كانهُ لم يمضِ الّا يومٌ من حين جاء به ابوهُ آخر مرّة الى هذا المكان. فسأل احد الصبيين: إذن انت من بلدنا ؟

فاجاب الرجل طافحًا بالسرور: نعم من ضيعتكم. لكن هذا التصريح لم يأتِ بالنتيجة المرغوبة فان الصبيين قابلاه بابتسامة لطيفة ليس الّا ولم يبديا ادنى اندهاش او علامة فرح ممّا علماه من ان الرجل ابن الوطن لا احد الجزّالين الاوربيين الذين يطوفون ايام الصيف في اصقاع لبنان. ولم يجد لهذا النبأ وقع عظيم في قلب الدكاني ولذا لم يرجُ التعرف اليه فسألهُ: اين صاحب الخان ريثما ؟

— انت تعني طانيوس فهذا قد مات من زمان

— وامرأتهُ الصالحة آسين ؟

— ماتت ايضاً

— ماتت ؟ ماتت ؟ قال الغريب متنهدًا : وعبدالله الراعي صاحب الشبَّابة المشهورة الذي كنا نقضي معهُ اياماً ؟

— انت تعرف الكل . لكن لم يبقَ احد وهذا ايضاً مات

٢

فاطرق المسافر وغاص في بحر الافكار المحزنة قائلًا في ذاته . جئت استعلم اخبارها فلا اجسر على السؤال اذ بتُّ اخشى الجواب . لكنهُ عاد الى نفسهِ بعد حين لمَّا رأى احد القرويين اقبل يحمل حزمة من الاشواك والاغصان اليابسة كان جمعها من الاحراش المجاورة فطرحها عند المدخل وجلس يستريح على مصطبة هناك ويمسح باذيال عباءته وجههُ المكلَّل بالعرق . فما تأملهُ الا صرخ بصوت الحبور وبادر اليه ومدَّ يده ليصافحهُ . فتفرَّس فيه الحطَّاب مستغربًا وكأنهُ لم يكترث لهُ . فصاح المسافر : وانت ايضاً يا بطرس منصور لا تعرفني ؟ فاعتذر الحطاب وحلف انَّهُ لا يعرف لهُ صورة قبل ذاك اليوم

فسألهُ : ألا تذكر الرجل الذي خاطر بروحهِ لينتذك من بين ارجل حصان جموح ؟

فلم يكن الحطاب ليفهم كلامه

— هل نسيت الشاب الذي كان يدفع دائماً عنك تعدّيات اولاد الضيعة وعلَّمك العابًا كثيرة واركبك مرارًا على حصانه ؟

— أذكرُ ان المرحوم والدي اخبرني مرَّةً اني لمَّا كان عمري خمس سنين كاد يدعسني الحصان لو لم يخلصني حنَّا الطويل . لكن هذا سافر من عشرين سنة الى بلاد بعيدة وراء البحر ومن ذاك الحين لم نعد نسمع خبرًا عنهُ وما ادرانا . لعلَّ اليوم تكون عظامه صارت مكاحل . الله يرحم ترابه

فصاح الغريب بفرح اذن تعرفني الآن انا حنَّا الطويل بل حنا غنطوس . ولمَّا رآه لا يبدي ولا يعيد اردف كلامه بقولهِ : ألا تذكر الصيَّاد الذي اشتهر في هذه الضيعة حتى كان لا يتقدم عليه احد كلما هجم ذئب او ضبع فكان هو وحدهُ يخلّص البلد من شرّ الوحوش ويصيب دائماً لا يخطئ ولا مرَّةً . فانا انا الصيَّاد حنا غنطوس (ستأتي البقية)

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

فاجاب الحطّاب متردّدًا: ربّما يكون. امّا انا بلا مؤاخذة من جنابك يا سيدي فلا اعرفك. وكيف اعرفك وانت خواجه غني كبير وانا فلّاح مسكين ما طلعت في عمري خارج الضيعة

قال هذا والقى ظهره ليستند الى الحزمة. فكأنهُ اضرَّ بهِ الحرّ والتعب او ظنّ انّ الغريب يسخر بهِ فلم يبالِ بشانهِ ولم يعبأ باقوالهِ. وليست كذلك حالة امثالهِ اذا رأوا في بلدهم غريبًا ولاسيّما اوربيًا فانّهم يرحّبون بهِ ويكرمون مثواهُ

فساء المسافر إعراضُ الحطّاب فلم يزد ايضاحًا بل عاد فلفّ الماريش على النارجيلة وهمّ بالانصراف قائلًا بكل هدوّ: لاتخلو الضيعة من اصدقاء لم ينسوني. فانت يا بطرس

ما كادت تلوح شمس النصرانية في العالم حتّى اصابت بيروت من اشعّتها. وقد جاء في تقاليد قديمة انّ المسيح لهُ المجد دخل بيروت لمّا كان متجولاً لبشارة الانجيل في تخوم صور وصيدا (مرقص ٧: ٢٦). ولا غرو ان الرسل اجتازوا بها مرارًا في غضون اسفارهم ونشروا فيها النصرانية لا سيما بطرس الصفا هامة الرسل و بولس رسول الامم

وجاء في كتاب تفاسير القديسين بطرس وبولس (راجع البولندستيين في الجزء ٢٢ ص ٢٧٦) انّ القديس بطرس عند خروجهِ من حبس هيرودس سار الى صور وصيدا ثمّ الى بيروت ونصب احدَ رفقائهِ عليها اسقفًا. وورد في اعمال القديس كوارتوس انهُ اول اسقف اقيم على بيروت وانهُ كان من عداد التلامذة السبعين يذكرهُ بولس في رسالتهِ الى الرومانيين (ف ١٦ آية ٢٣)

وقد ورد في كتاب سيرة الرُّسل الاثني عشر (كتبهُ هيبوليت التبي في القرن الثاني عشر) انّ يهوذا الرَّسول استشهد في بيروت وبها دُفن (راجع البولندستيين الجزء ٦٠ ص ٤٤٠) وهكذا ورد في تاريخ متّى بن سليمان. وقيل بل يهوذا احد السبعين تلميذًا.

وممّن يحقّ لنصارى بيروت ان يفتخروا بهم الشهيد ايانوس وكان درس الفقه في مدارس بيروت. وفيها ايضًا تلقّن العلوم القديس غريغوريوس العجائبي اسقف قيساريّة. ومن ابناء بيروت القديسان حنًّا واركاديوس ولهما قصّة غريبة اشبه بقصة القديس اوستاكيوس القائد الروماني. ومنهم ايضًا القديس رومانوس الشمّاس صاحب التسابيح التي تتغنى بها الكنيسة اليونانية

منصور لا تُلام لانك كنت صغيرًا في تلك الايام. ولا شكّ ان الطحّان غير بشاره يعرفني لاول وهلة. فكيف شغله ؟

— خربت مطحنته ونبت موضعها الداب والحور

— والطحّان غير ماذا جرى لهُ ؟

— اظنّ انه انتقل مع عائلته الى بيروت والله اعلم بحاله ولربّما مات ايضًا . والآن أفهم يا خواجه انك تتكلم عن زمن جدّي لكنك لا تحصل على جواب الّا من حفّار القبور الساكن في كوخ عند المقبرة فهو يعرف كل شي. ويعدّ لك على اصابعه كل الحوادث التي جرت من مئة سنة

— لا يخفاني ذلك ولا يبعد ان يوسف روحانا جاوز التسعين

— يوسف روحانا ؟ . . . ما هذا اسم الحفّار. اسمهُ فارس عبود

فتنفّس الغريب الصعداء وهتف اشكرك اللهمّ لانك ابقيت على احد اترابي

— كأن فارس صاحبك يا خواجه ؟

— صاحبي ؟ لا. فاننا كنا في خصام دائم. ومرّةً كنا نتصارع فزجيتهُ في الساقية الطامية من الامطار فكاد يغرق. ولكن ذلك قديم العهد ولا ريب ان فارسًا يُسرّ بلقادي. وانا ذاهب اليه في الحال

وعندئذٍ اخذ قطعةً من الفضّة واعطاها للدكاني واعدًا بان يتردّد اليه ليدخّن عندهُ بالنارجيلة فاجاب هذا: الحلّ محلّكم يا سيدي والكل تحت امركم. واشار الى احد ولديه ان: احمل خرج الخواجه ورُح في خدمته

فشكر الرجلَ قائلًا: ما من داعٍ الى ان تتعبه. ونفح الصبيَّ بدرهم واخذ منهُ الخريطة وانحدر في طريق متوعرة شرقيَّ الخان وقد خرج الدكاني يشيعهُ مكثرًا من اشارات الاحترام وعبارات الامتنان « شرفتم الله يحفظكم ربنا يطيل عمركم » حتى توارى المسافر عن ابصاره فعاد وهو لا يتمالك من الفرح لما نالهُ من الحلوان

٣

فسار المسافر ينوي خميلةً من الصنوبر كان عهدها في صباهُ يروق لهُ منظرها . فما ادركها حتى تقبّض واخذ منهُ الحزن. لأنّ عينهُ لم تقرّ الّا على اغراس حديثة امّا الاشجار الباسقة التي كان يستظلُّ تحتها فوجدها قد عبثت بها ايدي الدهر وتلاعبت بها عواصف

الرياح فكسرتها وقطعت فؤوس الحطابين جذورها المتأصلة في الارض فاصابها ما اصاب السكان من الخراب والفناء. وقد قام مكانها شجيرات لم يألف جنسها ولم تفده خبرًا عن احوال الاهلين

بيد انهُ كان يسمع تغريد الطيور المنتشرة فوق الاغصان فوجدها لم تزل تصدح كالوف عادتها فتشنّف الآذان باصواتها المطربة. وكذلك كان يعمل في قلبه حفيف الشجر لتلاعب النسيم باغصانها وقد علاها الجُدجد وهو يصرصر لحمارّة القيظ وكانت الزهور تبعث اليه بروائحها الذكية فتلذ حاسة شمّه. ففي كل هذه المناظر لم يجد ما غيّرتهُ الايام سوى اعمال البشر اما الطبيعة فلم تنفك تجري على ما رضتها لها الحكمة الازلية من النواميس

فمشى في الخميلة حينًا يلوح على محيّاه ما يزدحم في قلبه من العواطف فطورًا يغلبهُ الفرح لوصوله الى مسقط رأسه وتارةً الكدر لوجوده نفسهُ غريبًا في وطنه. ويبدو في حركاته ما يتنازعهُ من عوامل الخوف والرجاء. خفينًا يخشى ان يدوي في اذنه الجواب على كل سؤال عن الاحباب «مات. ماتت» فيقدم رجلًا ويؤخر اخرى. وحينًا ينعش الامل فؤادهُ فيرجو ان تكون سهام الدهر اخطأت تلك التي وجّه اليها افكارهُ وعواطفهُ بيد انهُ لا يشكُّ انها لو بقيت في قيد الحياة لا تزال بعدُ ثابتة على عهده فيمكنهُ الاستمتاع بلقياها فينسى بقربها ما تجشّمهُ من الاخطار وقاساهُ من الاهوال فيزيد هذا الفكر في نشاطه وسرعة مشيه

وما كاد يخرج من الخميلة حتى لاح لهُ مشهد بديع فرأى رياضًا اريضة اكتست بحلّة خضراء وشاها بنان الربيع تنساب في ارجائها جداول المياه كأنها افاع تتململ او دموع تتسلسل او لجين يسيل او صفحة سيف صقيل. ومنها ما يجري في قنيّ واسعة ثم يهوي من علٍ فيدير المطاحن ويسمع لها دويّ وجعجعة تطنّ لها الآذان. فسار قليلًا واذا ببيوت ابي القرية برزت للعيان وهي مبنية من الحجر المنحوت الاصم منها بيضاء السطوح ومنها ما علاها القرميد الاحمر. وقد امتازت بين هذه المساكن كنيسة الضيعة مكللة بقبة جرس يزينها صليب ابيض يلمع كالنجم الهادي

هي القرية. هو الوطن. فما كادت شفتاه تنطق بذلك حتى همت على خديه دموع الفرح وسقطت من يده الخريطة فمدّ ذراعيه كأنهُ يحاول الطيران وفي قلبه من العواطف ما يعجز عن وصفها القلم. فانهُ جاب البلاد وطاف عواصم الممالك الاوربية وتفقّد مصانعها ومعالمها

ولكنَّهُ لم يداخلهُ قطّ يوماً من عجائبها ما داخلهُ لدى نظرهِ لمسقط رأسهِ بعد طول الفراق ومرّ البعاد

وكانت الشمس ساعتئذٍ في كبد السماء فقرع جرس الكنيسة ايذاناً بصلاة الظهر. فخرَّ الرجل جاثياً على ركبتيهِ ولم يمنعهُ حرُّ الشمس من كشف قبعتهِ واحناء رأسهِ خاشعاً فصلى صلاة حارَّةً ثمَّ وجَّه الحاظهُ نحو السماء فارسلت عينهُ الى ابي المواهب عبارة الشكر الجزيل خارجة من صميم الفؤاد. وبعد ذلك اخذ خريطته واسرع في السير وعينهُ شاخصة الى قبة الجرس ولسان حاله يقول:

سقياكِ يا كنيسة الوطن فانكِ انتِ لم تتبدلي ولم تغيّركِ الاعوام ففيكِ نلتُ نعمة العماد وما بين جدرانكِ فزت بنعيم المناولة الاولى فطالما قرَّت بكِ عيني وطابت نفسي بما فيكِ

لقد أتاح لي السعد ان اعود فاراكِ وارى على مذبحكِ تمثال البتول في حلتها السمارية وتاجها الفضي. واشاهد ايليا النبي وفي يدهِ الحسام وأرى جرجس يطعن التنين المريع وكم حلمت بهِ فهالني رؤيا التنين في منامي. اعود فاسمع الاناشيد الشجية وطالما انعشتني نغماتها

قال هذا وادَّاهُ السير الى جسر فوق ساقية فانبسط قلبهُ ولاحت انوار نفسهِ على وجههِ فتهلّل حبوراً وهتف: الى هذا المقام شيَّعتني أنيسة. هنا ودَّعتها وأودعتها فؤادي. وفي ذلك الزمن كانت الرياض زاهرة كما هي الآن والطيور تغرّد كانها تعلّلنا بالاماني

فامسك عن الكلام وعبر الجسر وهو يتنهد ويقول بصوتٍ خافت: لعمري ان تلك الزهور شهود الوداع قد ذبلت وفنيت وتلك الطيور قد ماتت وهاك صغارَ صغارِها تنعش الآن همَّة الشيخ الفاني وقد كادت تغنى ايام الهناء. وانيسة ما حالها ؟ ما حلَّ بها يا ترى أو هي في قيد الحياة ؟ هل بقيت على العهد ثابتة ؟ ما ادراني انها لم تتأهل ورزقها الله اولاداً شُغلت بهم عن كل شاغل ؟ بعدنا عن العين فسلاكم القلب. فاهل الوطن لا يذكرون المنكود الحظ الذي ساقهُ سوء طالعه فابعدهُ عن الديار. قال هذا وبدا على ثغره تبسُّم الهزء والتهكم. لكنهُ ما لبث ان زجر هذه الافكار فقال:

— ويحك ايها القلب الضعيف ثارت فيك الغيرة كانك لم تزل في ربيع الحياة. مضى زمن الصبا فدع الاوهام . . . ما هي حقوق مثلك فجئتَ تطالب بها. أوَ كان على الاحياء ان تنتظر بصبر عودة الغريب من عالَم الاموات . . . ولكن أتراها لا تعرفني أو لا تذكر قديم العهد بيننا . . . الهي ان يكن لي بعض المقام في زوايا قلبها فلا اندم على رجوعي

من بلادٍ سحيقة ومعاناتي اهوال الاسفار واترك ناعمَ البال وهدة قبري بين اهلي واخواني . . .

وفيما هو على تلك الحال تتناوشهُ الافكار المحزنة دخل القرية يحاول ان يتعرَّف بالبيوت الجديدة . فساءهُ منظر القرميد وشكلهُ الهرمي فوق المنازل وكانهُ اعتبر تشييد البنايات على نسق اوربي إجحافاً بحق لبنان ومجدهِ وكاد يخامرهُ شكٌّ في انهُ ضلَّ طريقهُ ودخل غير قريتهِ . على انهُ ابصر بيتاً صغيراً عرفهُ فهرول اليه وولجهُ دون تردّد . فتراءى لهُ في داخله امرأة وشيخ احنتْ ظهرهُ الايام وهو ساكن كالصنم وجههُ مائل الى الارض وراسهُ مسند الى عصاً توكَّأ عليها بيد مرتجفة . فما وقعت عينهُ على الشيخ الّا عرفهُ فدنا منهُ وامسك بيدهِ وصاح بصوت الفرح : تبارك الله الذي ابقاك يا ابا ناصيف . فانت بقيَّة فاضلة من الزمن الماضي أفلم تعرفني . ألا تذكر ذاك الصبي الغرَّ الذي كان يطفر من فوق السياج ويأكل مشمشك قبل نضجهِ ؟

قال الشيخ : « ست وتسعين سنة » . غمغم هذا ولم يتحرَّك

— صدقتَ اني اعلم انك طاعن في السن . . انما ناشدتك الله يا ابا ناصيف إن تخبرني عن انيسة ابنة الصائغ هل هي في قيد الحياة ؟

فكرّر الشيخ مجمجماً : « ست وتسعين سنة »

وكانت المرأة قد ثابت الى نفسها من دهشة عرتها لدخول هذا الموسر الغريب الى بيتها فقالت لهُ : انهُ اعمى واطرش يا خواجه لا تتعب نفسك فلا يسمعك

— اعمى واطرش ؟ يا لله من صروف الزمان ما أكثر نكباتها في عشرين عاماً ؟ فكأني امشي بين اطلال عصرٍ باليــة

قالت المرأة : سمعتك تستعلم عن انيسة ابنة الصائغ يا سيدي فصائغنا لهُ خمس بنات ولكن لا واحدة منهنَّ اسمها انيسة فالبكر اسمها مريم اقترن بها معلم المدرسة والثانية راحيل والثالثة جميلة . . .

فصاح المسافر بفروغ صبر لا اسألكِ عن هؤلاء بل عن عائلة ايوب الحمدوني

— قالت المرأة : هؤلاء ماتوا كلهم من زمان (ستأتي البقية)

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعيّ)

(تابع لما قبل)

٤

فما تمالك الرجل ان اندفع الى خارج الدار كأنَّ بهِ مسًّا وصاح بصوت اليأس : ربَّاه أَوَ ماتت هي ايضًا ؟ انيسة ماتت ؟ ويلي فاني لا اسمع غير هذا الجواب « مات. ماتت » ولستُ اجد في بلادي من يعرفني ولا ترمقني عين صديق

قال هذا واخذ يمشي على غير هدًى يوسع الخُطى ولا يدري اين يؤدّيه المسير. فما كان منهُ الّا ان وصل بعد هنيهةٍ الى المقبرة بجوار الكنيسة. فنظر مليًّا الى منازل الاموات وهو واجم ثم تنهّد الصُعداء وقال بصوتٍ خافت : هنا عند خروجنا من الكنيسة قامت معي انيسة على قبرامّي وعاهدتني انها تثبت على ودادي وتصبر الى يوم رجوعي. فقبلتْ عربونًا مني صليب فضّةٍ . . . ما انكد حظّكِ ايتها الفتاة. انا سافرتُ الى دار الغربة وانتِ انتقلتِ الى عالم الاموات. فلم يسعدني دهري بان اجتمع بكِ بعد مرّ الفراق . . . وما ادراني اني لستُ قائمًا على قبركِ ادوس ثرى لحدكِ ؟

فما اتمّ هذا الكلام حتّى خارت قواهُ فسقط على بلاطة ضريح وقد بلغت روحهُ التراقي. ثم اجال طَرْفًا عليلًا في اكناف المقبرة فساءهُ حالها اذ رأى كلّ قبر فيها عبارة عن ركام حجارة. وتمنّى لو جرت في بلدهِ عادة استحسنها في الاقطار الغربية وهي ان تنصب الامّ صليبًا على ضريح ولدها رمزًا الى الرجاء. ويشيّد الابن فوق تربة والديهِ اثرًا يعلن برَّهُ بهما ويزيّن الصديق لحد صديقهِ بالرياحين والزهور دليلًا على حفظ الوداد. وكان قبل سفرتهِ وهو حدثٌ يتردّد الى المقبرة ليزور رمس والديهِ ويقدّم الصلاة لراحة نفسيهما. فلم يعد يهتدي اليوم بعد رجوعه الى قبريهما

وكانت المقبرة ساعتئذٍ قفرة لم يزرها احد عند الهاجرة فخلا لهُ الجوّ لبثّ شكواه وبعث نفثات الصدر وسجم الدموع السخينة . وفيما هو على تلك الحال يفكّر في زوال هذه الدنيا واهوال الموت وغوامض الابدية اذ طرق مسامعهُ وقعُ اقدام. ولم يكن القادم سوى الحفّار الشيخ قد جاء حاملًا مجرفة ومعولًا وكانت هيئتهُ الرثّة تنبئُ على فقرهِ وصروف

الزمان قد حنت صُلبهُ وأشملت رأسهُ شيباً وجمّدت وجههُ الّا انّهُ لم يزل بعدُ برق النشاط يلمع في عينيهِ

فما وقعت عين المسافر على هذا الشيخ الأعرف منهُ خصمهُ القديم فارساً عبودًا وهمّ ان يطير اليه لولم يثبّطهُ عن مرامهِ ما نابهُ من الفشل الى ذاك الحين فلزم مكانهُ ليرى ان كان يعرفهُ فارس

فوقف الحفّار على بُعد خطوات منهُ. وتأمّلهُ برهةً ثمّ اخذ يرسم في الارض شكلًا مربّعاً مستطيلًا ليحفر هناك قبرًا جديدًا. ولم يكن عملهُ ليشغلهُ عن مُسارقة النظر الى الغريب فما لبث ان لاحت على وجههِ أمارات سرور مُنكَر

فظنّ المسافر انها بشائر الفرح بلقاء عشير الصبا. فخفق فؤادهُ طربًا وعلل النفس بان فارساً يُسرع اليه ويناديه باسمه

امّا الحفّار فوجّه اليه نظرة الحقد والسخريّة ومدّ يده الى ما وراء ظهره تحت عباءته التي شدّ ذيلها الى وسطه واخرج حبلًا اعقد من ذَنَب الضبّ فزاد فيه عقدة وقد بدت عليه ملامح الفوز حتى ان الغريب نهض ودنا منهُ وسألهُ مندهلًا :

— ماذا تفعل ؟

قال الحفّار : هذا يعنيني. قد طال انتظاري حتى نفد صبري وهذه العقدة لحسابك

فصاح الغريب بفرح : اذن تعرفني

— ومن أعرَف بك منّي أوَ أنس خصمًا رماني يومًا في الساقية. ولولا القليل لغرّقني عن حسد لانّ انيسة ابنة الصبّاغ كانت تفضّلني عليه...

— انت ؟ تفضلك عليّ انيسة ؟ لا صحّة لما تدّعي

— لاشكّ في قولي. وهل نسيتَ يا حسود انّها حفظت كل السنة تذكارًا مني جلبتهُ لها من مار الياس فاتيتَ وتزعتهُ من صدرها ؟

فقال الغريب بلهجة من الحزن : فارس دعنا من احاديث الصبا ولا نذكرنّ ما مضى ولكن صدّقني انّ قلب انيسة لم يمِل قطّ اليك. وان قبلتْ هديّتك فلأنّها من مزار مار الياس ولئلّا يسوءكَ إباؤها. وانا كنت وقتئذٍ في عنفوان الشباب تلعب الخيلاء برأسي فلم أحسن ملاطفتك لها. ولكن هل يليق بنا ان نُثير مكامن الاحقاد بعد عشرين سنة مضت فافنت خلائق برمّتها. انت وحدك عرفتني أفتكون لي عدوًّا لَدودًا. ألا بحياتك هات

يدك فأصافحها وننسى ما مضى ونقضي ما تبقَّى من العمر في وفاق وإخلاص واعلم انَّ لديَّ وسائل استطيع بها ان أخفّف عنك مشاقّ الحياة

فنكص الحفَّار بفظاظة وقال بصوت اجشّ: انا انسى ما مضى ? . لا انساهُ ابد الابدين. لات حين وفاق فانك نغَّصتَ عيشي . . . ماكان يمضي يوم الاَّ ذكرتُكَ فيهِ وهيهات ان اذكرك بخير وانت سبب شقائي

فلطم المسافر خدَّيه وصاح: الهي الهي الحقد وحدهُ يعرفني والبغض وحده لا ينسى ولا يموت

فقال الحفَّار ساخرًا: حملتك الاقدارُ الى هنا لكي تجتمع باهلك الذين ماتوا. ليطمئن بالك دبِّرت لكَ الطويل قبرًا نعمًا القبر. فسأدفنهُ ان شاء الله عند حائط الكنيسة بقرب الميزاب حتى يصبّ عليه ماء السطح ويطهّر نفسهُ الاثيمة

فوثب الغريب عند هذا الكلام الذي خرق فؤاده كالسهم وامتقع لونهُ وتطاير من عينيهِ الشرر. بيد انهُ لم يكن الاَّ اسرع من ارتداد الطرف حتى ثاب اليه وقارهُ وسكن جأشهُ وباحت نار غضبه فقال متنهدًا: انك تأبى مصافاة اخٍ ردَّهُ الله بعد عشرين عامًا وماكان سلاحك عليه الاَّ السخريَّة والاهانة. أفارسُ انَّ ذا لفعل ذميم. لكنني أغضي على القذى واصفح عن السيئة. فقل لي اين قبرا والديَّ فقد طال بي البحث ولم اهتدِ اليهما

فقال الحفَّار بصوت حاكى همهمة النمر: لا اعرف. فاني منذ عشرين سنة حتى اليوم حفرت اكثر من مرَّة في المكان الواحد وبثرتُ ما في القبور من العظام

فكان لهذا الكلام وقعٌ انكى من الحسام في قلب المسافر فهاجت فيه الافكار وماجت وبقي مدَّة مطرقًا خافتًا. امَّا الحفَّار فعاد الى عمله ولكن بتراخٍ كانَّهُ اضطرب لسوء صنيعه نحو الغريب. والحقُّ يقال انَّ فارسًا لم يكُ برجل سوء فما لبث ان عاد الى نفسهِ وراعهُ ما ثار في قلبه من عوامل الانتقام وداخلهُ الندم على ما فرط منهُ في حقّ انسان كان لهُ عشيرًا في صباه. فزفّ الى خصمه الكئيب نظرة يستشفّ منها الحنوّ ثمَّ دنا اليه بهدوء وامسك بيده وقال لهُ بسكينة: يا صاحبي حنًا. سامحني فاني اسأتُ اليك. ولكن لو كنتَ تعرف ما قاسيت بسببك

فصافح الغريب يدهُ وصرخ: دع يا صاح ذكر ما مضى. فانَّ جوارحي تهتزّ طربًا لمجرَّد تلفظك ايها العزيز باسمي انا الغريب. وهاك نسيتُ مذ الآن ما فرط منك من الكلام

وقد عمل في قلبي ما لم تعمله السهام. قل لي ناشدتك الله اين قبر أنيسة فارويه بدامعي.
ولا بدعَ انها تفرح في العلا اذا رأتنا نتصالح ونتآخى عند مدفنها

— مدفنها ؟ يا ليتها أُدرجت في لحدها فتكون استراحت من الحياة
— فهي إذن حيَّة ؟ انيسة بعدُ في قيد الحياة ؟
— بئس الحياة وقُل بالاحرى موتًا
— كلامك قطَّع كبدي أفدني بربّك ما حلَّ بها ؟
— أنها عمياء
— انيسة عمياء . . . . ربي ما هذا المصاب . ولا يعود يشخص اليَّ بصرها

قال ذلك بصوت يفتت الجلمود وخرَّ على الارض متلاشيًا . . . ولمَّا عاد اليه بعض الرمق الحَّ في السؤال فاجابهُ الحفَّار: انها عميت منذ عشر سنين وهي الآن تدور على ابواب المحسنين تتسوَّل . وكلَّما ساعدني الله اعطيتها بعض دريهمات . ولا نخبز خبزةً الَّا وأفردنا لها حصَّتها

فوثب المسافر وضمَّ فارسًا الى صدره وهتف : اشكرك الف شكر . وجازاك الله خيرًا على ما احسنت اليها وسأكافئك ان شاء الله عنها فانا غنيّ من فضـل الله ولست انسى معروفك . فأخبرني رحم الله اجدادك اين هي فأطير اليها وانشلها من وهدة الشقاء

فاشار الحفَّار بيده قائلًا : هناك قرب البيت المغطَّى بالقرميـد الاحمر . ذاك البيت الصغير . وفيه يسكن سركيس الحائك مع عائلته وانيسة ساكنة معهم

٥

فما سمع المسافر هذه الكلمات الَّا اندفع كالسيل مارًّا في وسط بنايات الضيعة حتى وصل الى بيت الحائك . . . وما هذا البيت سوى عبارة عن سافات من الحجر الاصمّ غير المنحوت تكاد لا يتخللها ملاط قد قامت كالجدران فاستند اليها سقفٌ من جذوع الصنوبر بارزة الاطراف يعلوهُ طبقة من التراب والنحاتة . وفوق الكل اسطوانة يعرفها العامَّة بالمحدلة ولا نظن سطحًا من مساكن لبنان القديمة يخلو منها وهناك مصطبة قد ضربت فوقها بعض الدوالي قبة خضراء . وقامت الى جوانبها اصناف من البقول والرياحين كثر في خلالها الحبق . وكان بالقرب صبيّ لا يتجاوز السادسة من عمره مع ثلاث بنات اصغر منهُ وكلّهم يلعبون حُفاةً تسترهم بعض أسمال الثياب وهم مكشوفو الرأس غير مبالين بحرّ الشمس

وكانوا اذ ذاك يحملون في الارض حفرًا يغرسون فيها اغصانًا مقطوعة ويحملون اليها الماء في كسر ابريق او جرّة من فخّار

فلما بصرت البنات بالغريب اطرقت كل منهنّ حياء وهي تنظر خلسةً الى هيئته وزيّه امّا الصبي فحدجه ببصر غير هيّاب تدلّ نظراته على بعض الدهشة والفضول

ولم يكن المسافر لتلهيهُ المناظر او يتوقف في سيره بل زفّ الى الاولاد ابتسامةً وولج المنزل حينما وجد ربّ البيت جالسًا الى نوله يحيك وامرأته في زاوية تغزل الحرير وكلاهما لم يزالا في مقتبل العمر تلوح عليهما لوائح القناعة والرضى بحالهما. وكل ما حولهما يدلّ على انهما امتازا بالنظافة وحسن الترتيب

فلما فاجأهما الغريب عراهما الانذهال لاوّل وهلة فتركا شغلهما وبادرا اليه اعتقادًا منهما انهُ ضلّ سبيله فوافاهما يطلب ايضاحًا. فتلطفا بدعوته للجلوس لكنهُ قال لهما بصوت يتلجلج : هنا ساكنة انيسة حسُّون ؟

فوقعا في حيرةٍ عند هذا السؤال وتبادلا نظرةً لا توصف وقد منعهما فرط الدهشة عن الجواب. ثم عاد الحائك الى نفسه فاجاب : نعم يا سيدي. انيسة ساكنة هنا. لكنها خرجت منذ ساعة. فهل ترغب في مواجهتها ؟

فهتف المسافر : ترى اين هي الآن. أليس من سبيل الى ان تحضر في الحال ؟

— هذا صعب يا سيدي فانها خرجت مع بنتنا الصغيرة روزا في دورتها الاسبوعية لكنها ترجع بلا ريب بعد ساعة. فانها ما تأخرت ولا مرّة. تفضَّل فاسترح. ربما تكون تعبان

— اسمحا لي بانتظارها هنا

فاسرعت المرأة الى خزانة واخرجت منها مسندًا وسجّادة والحّت على الغريب ان يستريح عليهما. فتأثر هذا ممّا صادف من الحفاوة به وجلس مستأنسًا. فكشف القبعة عن رأسه واخذ يمسح جبينه المكلّل بالعرق وقد سكن ما جاش في نفسه من الجأش

وكانت المرأة قد اشارت الى بناتها فبادرت احداهنّ الى العين تستقي ماء باردًا واقبلت هي مع الصغيرتين على اضرام النار واعداد النارجيلة والقهوة. امّا الحائك فقام بين يدي ضيفه كأنّهُ ينتظر اوامره او يفكّر في عمل كل ما من شأنه ان يشرح صدره ويسرّهُ. ولا يخفى ان اهل لبنان اشبه الناس بالعرب في حسن الضيافة

(ستأتي البقيّة)

للقراءة او الشغل لان لا سطوع لهُ ولا ثبات. فينبغي لمن اراد ان يستضيء بهذا النور ان يستخرج ما في الحطب من الغاز فيقطرهُ ويصفيه ثم يجمعهُ في قنديل ويوقده. وهو امرٌ لا يمكن اجراؤهُ الّا في بعض البلاد الغنيّة بالغابات والحطب

هذا وان الدهون والشحوم والصموغ تصلح ايضاً للتنوير الّا انها لقلّة نورها وكثرة دخانها لم تعد تستعمل اللهمّ الّا في بعض الاحوال لعدم وجود غيرها

ولكي لا نتجاوز الحدود في المقال فاننا سنبحث عن شمع الشحم ثم عن الزيت والپترول ثم الغاز بغلافٍ متأجج او دونهُ ثم الأسيتيلين ونختم بالكهربا. وسنذكر اختلاف اسعار ما سبق ذكرهُ بياناً للاقتصاد في التنوير البيتي والتنوير العمومي وسنبيّن بنوعٍ خاصّ ما يحصل من هذه الانوار من المضارّ للبصر. وفي الاجمال انّ التنوير الصناعيّ مخلٌّ فيؤثر في البصر والرأس وينتج عنهُ عدّة امراض. وقد استلفت الدكتور شاكر الخوري في كتابهِ المفيد عن صحّة العين نظر الجمهور الى هذا الامر المهمّ ويحسن بنا ان نختم كلامنا بقولهِ :

«ان العين خلقت هكذا لاجل استقبال الضوء واذا لم تدرك الضوء فلا نفع بها فاستنتج من ذلك ان حياتها الادبية هي الضوء فدائماً تفتش عليهِ وتعمل مجهودات كليّة لاجل ادراكه فترى الحدقة التي خلقت لاجل تنظيم الضوء تتغير اشكالها بالضيق والسعة حسب مقدار الضوء فانها تنقبض في الضوء وتتسع في الظلام ... وعلى قدر منفعة الضوء يكون ضرره اذا كثر او قلّ لان الكثير والقليل يسبّب الضرر نفسه فاذا كانت العين سليمة فكثرة الضوء او قلّته تضرّها واذا كانت مريضة فان ادنى شيء منهُ يضرّها جدًّا فيلزم منعها عنهُ بالكلية لانهُ منبهها الطبيعيّ فتتنبّه منهُ اكثر من غيرهِ »

(ستأتي البقية)

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعيّ)

(تابع لما قبل)

فلم ينتبه الغريب بادىء بدء الى احتفاء اهل البيت بهِ لانهُ وجّه كلّ افكارهِ وكلّ عواطفهِ نحو التي قد طار اليها فؤاده. وقد سرحت انظاره في زوايا المكان علّهُ ان يصادف

من الموجودات ما يخبره عن انيسة . وفيما هو على تلك الحال ذاهلاً اشعر بيد ناعمة اخذت باناءه فاذا به يرى الصبيّ الذي شاهدهُ يلعب مع البنات . وكان هذا الصغير تخلّف عن امّه واخواته ولحق بالغريب كأنَّ قوّةً تدفعهُ نحوه فوقف بين يديه يحدّق بعينين زرقاوين تلمعان انعطافاً ويزفّ عن ثغر كالدرّ ابتسامات تسبي الالباب

فنادتهُ امّهُ قائلة : تعال يا بطرس . ما هذه الجسارة يا بُنيَّ

وكأنَّ الصغير لم يسمع نداء والدته فبقي يداعب الرجل . وقد أُعجب هذا به وحنت اليه جوارحهُ وهو لا يقف على سرّ تبادُل الانعطاف بينهما فقال للولد بصوت الحنوّ : حُيّيت من مَلَك صبوح الوجه وضّاح الجبين فقد خرقت نظراتك فؤادي وانت بكل تحنة جدير يا وجه الخير

واخرج من جيبه كيساً صغيراً له حلقات فضيّة يتخلّلهـا بعض اللآلئ فدسّ فيه شيئاً من النقود وقدّمهُ للصبيّ فطار هذا فرحاً بالهديّة لكنهُ ما برح قابضاً على يد الغريب يتأمّلهُ كأنّما قرّت به عينهُ

فتقدَّمت الامّ وقالت لهُ بصوت التوبيخ : بطرس لا تكن قليل الادب . اشكر فضل الخواجه وقبّل يده . فقبّل الصغير يد المحسن اليه وهتف بارق النغمات . كثّر الله خيرك يا سيّد حنا الطويل . . .

فما اعظم ما كان انذهال المسافر وتأثره عند ما سمع هذا الصغير يتلفّظ باسمه . فاغرورقت عيناه بالدموع واخذهُ بين يديه وحدّق اليه وسألهُ قائلاً : ايها الملاك الكريم كيف علمت مَن انا ولم ترني البتّة فمن انبأك عن اسمي ؟

فاجاب الغلام متبسماً : انيسة الضريرة

قال الرجل : وكيف عرفتني انني انا هو ولا غيري ؟

— عرفتك يا سيّدي على الفور . فاني لمّا كنت اذهب مع انيسة لندور على الابواب ما كانت تنقطع عن ذكرك . وقد سمعتها مراراً تقول انك طويل وعيونك سود لامعة . وانك ستعود حاملاً الينا التحف والهدايا . . . ولذا لمّا رأيتك ما خفت منك لان انيسة اوصتني بان احبّك ووعدتني انك تعطيني عند رجوعك حصاناً . . .

وكان المسافر يصغي الى كلمات الصبي يتنعّم اللذّة فضمّهُ الى صدره شديداً والتفت الى الحائك وامرأته فصاح قائلاً : ايها الوالدان انني آخذ على نفسي العناية بشان ولدكما

فأجعلهُ في المدرسة ليتعلم ويتثقف فلا ينقصهُ شيء . . فهو اوّل من عرفني واحبّني ولذا فاني اسعى في ان تكون معرفته لي علّة نعيمهِ على الارض

ولا حاجة الى وصف دهشة ذينك الوالدين وفرحهما . فقال الاب متلجلجاً : قد غمرتنا بفضلك يا سيدي . . . ولكن نحن كنا عرفناك . وقد ظننّا ان العيان يخدعنا لان انيسة لم تخبرنا انك رجل غني خطير

فصاح المسافر : وانتما ايضاً تعرفانني يا وجوه الخير فستياً لكما : يا الله اني اراني بين خلّاني عند اهلي في وطن لم اجد فيه بادئ بدءٍ الّا الموت والنسيان

فاشارت المرأة الى صورة العذراء في مشكاة وقالت : هنا كنّا نوقد قنديلًا كل يوم سبت لاجل رجوع حنّا غنطوس . . . او لراحة نفسه

فرفع المسافر طرفهُ الى السماء كأنّما زال عنهُ حملٌ فادح فصاح : تعالت احكامك يا كريم فانهُ بفضلك غلب الحبُّ البغضاء . لئن يكن الغفّار اكمن الحقد في اعماق فؤاده فانيسة عاشت بذكري واضرمت كلّ ما حواليها بنار الحبّ فجعلتني حاضرًا مع طول غيبتي وبُعد سفرتي وطبعت القلوب على مودّتي . اشكرك اللهمّ على عظيم نعمتك

وعقب هذا الكلامَ سكوتٌ طويل . فكان المسافر يحاول ان يتجلّد لما عراه من شديد التأثُّر وصاحبا البيت مطرقان تهيُّباً واجلالًا . وقد تظاهر الحائك انهُ عاد الى نوله ولكنه ما برح يسارق النظر الى ضيفه ليبادر الى خدمته ان بدا منهُ اشارة

٦

امّا هذا فدخّن بالنارجيلة تباعاً وهو لا يرشُدُ ثمّ عاد فاخذ بيدي الصبيّ وقال بصوتٍ مستكين : هل مضى على انيسة زمن وهي مقيمة عندكم ؟

فجاءت المرأة بمغزلها ودنت من المسافر كأنّها تتهيّأ لحديث فجلست واجابت

اني اخبرك يا سيدي كيف انتقلت الينا انيسة . يجب ان تعلم انهُ بعد موت حسّون الشيخ وامرأته تقاسم اولادهما التركة . ولم تكن انيسة ترضى بان تتزوّج ولايخفى عليك سبب امتناعها . فتخلّت عن حصّتها لاخيها على شرط انها تقضي عمرها في بيته ثمّ اخذت تشتغل بالخياطة وكانت تجمع كميّات من الدراهم وافرة توزعها كلها على سبيل الاحسان

وكانت تعود المرضى وتستدعي لهم الطبيب على نفقتها ان كانوا من اهل الفاقة . وكان كلامها العذب يعزّي الحزين ويدها البيضاء تنعش قلب البائس . فيوماً من الايام —

ولم يكُ قد مضى على زواجنا الّا ستة اشهر — عاد زوجي الى البيت يشكو مرضاً عضالاً سبَّب له من ذاك الحين هذا السعال الذي تسمعهُ . ولولا رحمة الله وشهامة انيسة لكان زوجي يوسف في عدد الاموات . آه ياسيدي لو كنت تعلم ما بذلت انيسة في سبيلنا مجرَّدًا لوجه الله . فانها جاءتنا بأغطية صوف وكان وقتئذٍ فصل الشتاء . ونحن فقراء . واستدعت طبيباً من سوق الغرب ليفحص مرض زوجي واخذت تسهر عليه هي بعينها فتخفف آلامهُ وتؤنسني بكلامها الرقيق . فما احنَّ قلبها واشرف نفسها . فكنت تراها لا تهتمّ بشأنها بل توجه اعمالها لخدمة الغير كأنها ما دخلت الدنيا الّا لاجل القريب وما اتعس ما كانت حالتنا لولا هذا الملاك . فهي دفعت عنا ثمن الادوية وكانت تمدّنا بالدراهم

وكانت محبوبة من الجميع وحينا كانت تدخل بيوت الاغنياء تطلب منهم المساعدة لفقرائها لم يكن احد يطاوعه قلبه ان يمنع عنها العطاء . وبقي يوسف مريضاً مدةَ شهر ونصف وانيسة تساعدنا حتى تمكَّن زوجي من معاودة اشغاله

فقال المسافر متنهدًا : لاشك انَّ حبَّكما عظيم للصبية

فرفع الحائك رأسهُ وكانت الدموع تتلألأ في عينيه فصاح بلهجة التأثر الشديد : لو كان دمي يُعيد اليها بصرها لتركتهُ يسيل حتى آخر قطرة

فاخذ هذا الكلام من حنا مخطوس كل مأخذ وفعل فيه ما لا يوصف وقد فطنت المرأة الى حالته فاومأت الى رجلها ان يلزم السكوت وعادت الى سياق حديثها فقالت :

وبعد ثلاثة اشهر رزقنا الله صبياً . وهو الذي بين يديك . ويوم عماده توسلت الينا انيسة بان نسمّيهُ حنا . لكن سلفي طلب ان ندعوه بطرس باسمه وسلفي رجل طيّب القلب لكنه عنيد . فبعد الاخذ والردّ تقرَّر ان نسمي ولدنا حنا بطرس . فنحن نناديه باسم بطرس اكرامًا لسلفي امّا انيسة فلا تدعوه الاّ حنا . وهو مثل الحمل حنطتهُ السيدة . وقد تعوّد على الاسمين . ويعلم انهُ يدعى حنا باسمك انت يا سيدي . . .

فضمَّ المسافر الصبي على صدره وقبَّلهُ مرارًا ثم اخذ يتأملهُ ولم ينطق ببنت شفة وكان فؤاده يطفح سرورًا . فنسي حينئذٍ الخمس والعشرين سنة التي قضاها في الغربة لا يرى صديقاً ولا نسيباً ولا انيساً . نسي ما قاساه من الاتعاب وما تجشمهُ من الاخطار . فكفاهُ حظًّا انهُ عاد ما بين قوم يعرفونهُ وينظرون اليه نظر الوداد ولسعادة حظه قد وجد ان انيسة لم تزل حيّة . فكان لقلبه هذا الفكر اشبه بوابل المطر على الرمال المحرقة يردّدهُ في جنانهِ :

انيسة لم تزل حيّة قريبة منهُ وعما قليل يراها ويضمها بين ذراعَيهِ... فضمَّ الصبي وقبّله ثانيةً لا مي. والصغير ينظر اليهِ جذلًا مسرورًا

٧

وكانت الامّ تتأمل في هذا المشهد وقد عرا قلبها اهتزاز طرب لا يوصف. ثم عادت الى حديثها فقالت: وكان اخو انيسة اتّفق مع احد تجار بيروت على مشترى فيالج (شرانق) هذه النواحي كلها. وكان الناس يزعمون ان هذا الشراء يُغنيهِ كثيرًا. وفي واقع الامر ربح في البداءة ارباحًا طائلة. ولكن لم تمضي عليهِ ايام الّا افلس التاجر وكان اخو انيسة قد كفل كل الغرماء. فدفع لهم جميع اموالهِ وباع ما عنده ولم يفِ بذلك نصف ديونهِ. وما لبث ان مات من الغم والقهر. الله يرحمهُ... وحينئذٍ عرض فارس عبُّود على انيسة ان تسكن معه في بيت ابيهِ... فقطع المسافر كلامها وسأل باغتًا: وما فعلت انيسة ؟

— لم تتردَّد عن الجواب بالرفض. وقد عرفنا فيما بعد سبب رفضها ولمّا كانت رقيقة القلب تلاطف الجميع كان فارس عبود يسعى في مكالمتها فكانت تجيبه بحشمة وادب وتمرّ في طريقها ومع انها فقيرة خطبها كثيرون من الشبّان من احسن عيال الضيعة. ولكنها ابت ان تجيب هذا الطلب. ولم يكن التخلص من مثل هؤلاء الطالبين بامر السهل. وبعضهم ظنوا ان رفضها ناتج عن احتقار لهم فسعوا في اضطهاد هذه البنت القديسة وحاولوا ايضًا ان يلقوا عليها التهم الشنيعة. ولكن خابت مساعيهم اذ لم يكن في الضيعة من يصدق تلك الاشاعات القبيحة في حقها. ولا يظن السوء في انيسة الّا من يشكّ في الفضيلة عينها

ولم تخلُ مع ذلك من مقاساة الاهانات. وما يصعب تصديقهُ ان الذين خلّصتهم من الموت ونشلتهم من وهدة الفقر هم نفسهم الحقوا بها الاذى. فتلك حالة العالم. ومصائب هذه الابنة الكريمة اغلقت دونها ابواب القلوب عوض ان تستميل اليها الجميع (ستأتي البقية)

كتب شرقية جديدة

الآثار الفكرية

لعبدالله فكري باشا ناظر المعارف المصرية سابقًا

هو عنوان كتاب يشتمل على ما تيسّر العثور عليهِ من نظم ونثر لعبدالله فكري باشا ناظر المعارف بمصر سابقًا. وقد جمع هذه الآثار حضرة نجلهِ سعادتلو امين فكري

لقراءة خَتْمة (١ واشعل الجامع في هذه الليلة كما يشعل في نصف شعبان. وكان الذي اخبر السلطان انَّ بيدرا ارتشى من الكسروانيين بيبرس طُقْصوا فاسرَّ بيدرا الامر في نفسهِ وتربَّص له. فلمَّا قبض السلطان على لاجين (٢ في عيد الفطر من السنة المذكورة خاطب بيدرا السلطانَ في القبض على بيبرس طُقْصوا فقُبض (١٢) عليهِ مع لاجين لانهُ كان قد تزوَّج ابنتهُ (ستاتي البقية)

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

هذا ولم ينفك طلأَب انيسة عن ملاحقتها. وانَّما توقَّف فارس عبُّود وحدهُ عن الالحاح لَمَّا رأى ثبات عزمها. لكنهُ عمد الى حيلة نغَّصت عيشها. فانهُ دنا منها ذات يوم وفي يدهِ رسالة حاشيتُها سوداء. وقال لها: قد وصلت اخبار عن حنَّا الطويل

فلما سمعت انيسة ذكرهُ برقت عيناها وسألت قائلة: ما يكون الخبر؟ فاجاب فارس بمظاهر الحزن الشديد: ما هو خبر سارّ

— اهو مريض؟

— يا ليته... لكن..

— أمات؟ قل بحياتك قل لي الحقيقة. لا تخفِ عني شيئاً

فلم يكن من فارس الَّا انه نشر تلك الرسالة وقرأ مضمونها. وكانت من احد انسباء حنَّا غنطوس المقيم في الاسكندريَّة وهو يقول فيها ان المركب الانكليزي الذي سافر عليه حنَّا

---

١) قراءة الخَتْمة هي رتبة دينيَّة عند المسلمين يُقرأُ بها القرآن على تمامهِ

٢) لاجين هو حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير احد امراء الملك الاشرف قبض عليهِ سيّدهُ في دمشق مع الامراء سنقر الاشقر وجرمق وبكتوت وبيبرس طقصوا واعتقلهم مدَّة في مصر وامر بشنقهم الَّا انَّ وتر الامير لاجين قُطع فنجا من الموت ثم اتَّفق مع الامراء على قتل الملك الاشرف. واستولى على السلطة بعد الملك العادل كتبغا سنة ٦٩٦ (١٢٩٧) وقتل سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩) قتلهُ المماليك

قد غرق وان كلَّ الركاب هلكوا وان الرُّبان مع بعض اللأحين تمكنوا وحدهم من النجاة

وكان وجه انيسة وقت القراءة قد علاه اصفرار الموت وكل جسمها يرتجف . فقال فارس بكل فظاظة :

لم يعد لكِ اذن من رجاء . فانظري في ما تعتمدين . فان قلبي لم يزل على حاله رغمًا عن رفضكِ في الماضي . فانتِ الآن فقيرة يتيمة لا سند لكِ ومع ذلك اني اعرض عليك اليوم كن قبل ان تكوني شريكتي في مالي وبيتي وارزاقي . فهل تقبلين ؟

فلما سمعت انيسة هذا الكلام عادت الى نفسها وكفكفت دمعتها وقالت لهُ بمنتهى العزم :

انت يا فارس اظهرت في كل آن الصدق والمروءة وطالما دفعت عني شرَّ المضطهدين . وافضل وسيلةٍ لأبدي لك شكري هي ان اخاطبك اليوم بصراحة . اعلم يا فارس اني لست مُطلَقة الحريَّة فقد حلفتُ لحنَّا انني انتظر رجوعه . فلا أخاف وعدي ولو قُضي عليَّ الصبر ثلاثين سنة . والآن اكرّر امامك اليمين اني اثبت على عهده ولو نزلت الى قبري . انما قلبي يحدّثني انَّ حنا لم يمت وانه لا ريب يعود

فلما تأكد فارس ثبات عزمها زيّنت لهُ مروءتهُ ان لا يعود الى ملاحقتها . وقد أُعجب بشهامتها فقال لها بصوت التأثر :

انيسة انك حرَّة وليس لي عليك حق . ولكن اذكري دائمًا ان فارسًا عبودًا مخلصٌ لك وانهُ يجود في سبيلك بكل عزيز ليبرهن لك عن ودادهِ

وفي الواقع ان فارسًا لم ينفك من ذلك الحين عن الاحسان اليها

٨

وفي تلك الاثناء كانت انيسة ساكنة عند احد الجيران المسمَّى ناصرًا . فاتّفق ان ابنه عاد من مصر مصابًا بمرض العيون وما مضى على رجوعهِ خمسة عشر يومًا الَّا ابتُلي بالعمى . وكانت انيسة ترثي لحاله فتسهر عليه في مرضهِ وتعتني بهِ وتلازمه رحمةً بهِ حتى انتقلت اليها العدوى وفقدت البصر . . . . وقد مات ناصر وسافر اولاده . فطلبنا حينئذٍ من انيسة ان تسكن معنا ووعدناها انا نحبها ونخدمها طول العمر فقبلت طلبنا . فاحلف لك ياخواجا انه مضى عليها في بيتنا اكثر من ستّ سنوات ولم نتكلف عليها شيئًا وليس لنا في ذلك ادنى فضل فهي لطيفة رقيقة قنوعة . وحياتك ياخواجا انها قديسة حقًّا ويكفينا ان نلتقي اليها النظر حتى نحتمل بصبر كل اكدار المعيشة ونصنع الخير . فاولادنا يحبونها حبًّا شديدًا ويكرمونها

كما يُكرَّم عبيد الله وتراهم يتسابقون الى خدمتها ويتنافسون لعمل ما يرضيها . . .

فتنهد المسافر وقال : انيسة تتسوَّل

فتوهمت المرأة انهُ يوجه اليهم اللوم فقالت : نعم انها تتسوَّل ياسيدي . على اننا لسنا المذنبين . فلا يخطر ببالك اننا نسينا فضل انيسة علينا . وكنا نحب ان نقاسي الجوع كلنا ولا تخرج للاستعطاء . ولكن ما الحيلة . فانا بذلنا جهدنا حتى منعناها التسوُّل فامتنعت مدةً حتى كثر عدد اولادنا . فافتكرت انيسة انّ وجودها يُثقل علينا وطلبت ان تسعفنا بطريقة من الطرائق . فلم تجد وسيلة فحزنت جدًا حتى مرضت . فاخذت تبكي وتطلب الينا ان نسمح لها بالتسوُّل . فلم نرَ بدًّا من اجابة طلبها

وعلى كلٍّ ياسيدي ليس ذلك عارًا على ابنة ضريرة . وان نكن فقراء فليس والحمد لله يعوزنا شيء . وغالب الاحيان تجبرنا على ان نقبل منها مما تجمعه . ولا يمكننا ان نبقى معها دائمًا في نزاع . ولكن ما نأخذه بيدٍ نردهُ عليها بالأخرى اضعافًا فاننا ولو على غير علم منها نكسوها ثيابًا افضل من ثيابنا ونقدم لها طعامًا احسن من طعامنا وكل يوم نقدم لها شيئًا زائدًا . فالآن مثلًا تزيد على عشائها بيضتين . امَّا ما يبقى معها من صدقات المحسنين فانها تحفظهُ لاولادنا حتى يكبروا كما فهمتُ ذلك من معنى كلامها . حقًا يا خواجا مثل هذه القديسة تستحق اعظم مكافأة على حسناتها ولكن لسوء الحظ نحن عاجزون عن مقابلتها بغير الشكر

هذا والمسافر يصغي كل الاصغاء الى تفاصيل الحديث لا ينطق ببنت شفة ولا يبدي حركة . بيد انهُ كان يدخن بالنارجيلة وثغره يفترّ ابتسامًا وعينهُ تغرورق بدموع الفرح ويدهُ تلاطف الصبيّ وكلُّ ملامحهِ تدلّ على ما خامرهُ من التأثر وداخلهُ من الحبور

فصمتت المرأة واقبلت على مغزلها تديرهُ . فبقي المسافر ساعة وهو غائص في بحرِ الافكار السارّة ثم ترك الصبيّ ومشى الى الحائك وقال لهُ : دع عنك شغلك هذا

فلم يفقه الحائك معناهُ ولبث في حيرةٍ من لهجتهِ

فصاح المسافر : دع عنك هذا النول ومدّ يدك لأصافحها يا صاحب معمل الحرير

فكرَّر الحائك باندهاش : انا صاحب معمل الحرير ? أنك تمزح يا سيدي

— هيا واطرح هذا النول فاني اهبك معملًا كامل المعدَّات تُدير دواليبهُ آلةٌ بخاريَّة .

وكأني اراكَ لا تثق بكلامي مع اني لا انطق بغير الحقيقة

قال هذا واخرج من جيبه قبضة دنانير واردف قائلًا :

ليس ما يمنعني من ان اعطيك هذا المال في الحال . ولكنك احبّ اليَّ وارفع في عيني من ان اضع في يدك ذهباً . فانني اجعلك صاحب معمل عظيم واهتمّ كل الاهتمام بمستقبل اولادك فلا يتقدّمهم شيء حتى بعد موتي . والفضل في ذلك لأنيسة . فانكم احسنتم الى الضريرة واويتموها واكرمتم مثواها واحببتموها . فاذا خطبها احدكم عنها فابوهن بصنيعي هذا على ان الاحسان لا يضيع . لقد اخذتم بناصر انيسة في الضراء فيحق لكم ان تشاركوها في السراء . وما كانت انيسة لتهجركم . يا صاحب المعمل لسنا نفترق عنكم مدى الحياة

قال هذا وقبض على يد الحائك يصافحها ويهزّها بشدّة كما هي عادة الاجانب عند المصافحة . فتبادل الحائك ولمرأته نظرة التأثر ولم يقويا على ادراك معناه حقّ الادراك . فحاول المسافر ان يزيدهما ايضاحاً واذا ببطرس الصغير جذبهُ بثوبه كانهُ يرغب في ان يقول لهُ كلاماً ذا شأن

فسألهُ الرجل : وما لديك يا حبيبي ؟

فاجاب الغلام : يا سيدي حناً قد جاءت الساعة التي فيها تعود انيسة فهل تريد ان تذهب لملاقاتها فابشرها بقدومك

فاخذ الرجل بيد الصغير وسار به نحو الباب قائلاً : هيّا . وسر امامي نحوها

وهكذا خرج مع الصبيّ واسرع يوسع الخطى في القرية . فلما شاهدهُ اهل القرية على تلك الحال برزوا من البيوت رجالاً ونساءً فرأوا بطرس الصغير مرتدياً بثوبه القصير حافياً حاسر الرأس يطفر الى جانب الغريب قابضاً على يده يكالمهُ ويمازحهُ .

فاخذ منهم العجب مأخذه ولم يكونوا يعلمون ما هي العلاقة بين الصبيّ وهذا الخواجا الغني الذي عدوهُ اقلّها يكون تنصلاً . ومن يصف عظيم اندهاشهم لمّا رأوا الرجل انحنى نحو الصغير وقبّلهُ

فازدحم الواقفون بالابواب وكثر الحدس والتخمين . وكان للنساء من الحديث النصيب الاوفر . وذهب القوم مذاهب شتى اقربها الى الصواب هو ان هذا الخواجا الغنيّ او القنصل خطر لهُ ان يتبنّى الصبيّ فسار به ليعتني بتربيته . وذلك لامرٌ ليس بالنادر . والحقّ يقال ان بطرس ابن الحائك سركيس كان اجمل صبيان الضيعة يستميل اليه القلوب بعينيه الزرقاوين ولوائح الذكاء والنجابة البادية على محيّاه الصبيح . ولكنّ بعض العقلاء لاحظوا

انهُ لمن المستغرب ان يتبنَّى الخواجا الصبيَّ ويسير بهِ حافياً

ولم يمضِ القليل الّا اصبح اهل الضيعة في الطرق لا يشغلهم شاغل عن الحديث في هذا الامر ويودّهم لو يسألون الغريب ايضاحاً ولكن لم يكن منهم مَن يجسر على السؤال. فكلهم تهيّبوا ممّا رأوا من طول قامته وكبر قبعته ولم يخطر لاحدٍ منهم ببال ان الرجل ابن الوطن...

٩

وبينا هم في قيل وقال كان الغريب يجري حثيثاً لا يلوي على عنان. وقد خُيل لهُ ان القرية كلها اضاءت بنورٍ سماويّ فتراءت لهُ بمشاهد لم يجد لها مثيلاً في المدن والعواصم التي زارها في اسفاره. وقد لاحت الرياض لعينيه مكتسية بحلّة خضراء بهيجة وزفّ اليهِ النسيم نفحات زكية تنعش القلوب. وبدت لهُ البيوت الحقيرة بمظهرِ العظمة والجمال. وكأنهُ شُغل عن الصبي فمال بكليّته الى دواعي الفرح والنعيم وقد شخصت عينهُ الى مكانٍ بعيد كأنَّ بصرهُ يحاول ان يخرق حجاباً كثيفاً من شجرِ التوت يخفي عنهُ منعطف الطريق. واذا بالغلام يجذبهُ بشدَّة ويهتف قائلاً: هناك. هناك. انيسة مع اختي روزة

واذا بشبح ابيض ظهر بين خلال التوت ثمَّ تقرَّب فرأى المسافر ابنةً ضريرة لم تعُد في مقتبل العمر تقودها طفلةٌ في الخامسة من عمرها

فما وقعت على الضريرة عين المسافر الّا وقف في مكانهِ لا يتحرَّك وتأمل بحزنٍ بتلك المسكينة وهي تمشي الهوينا نحوه... أتلك هي انيسة المحبوبة... أتلك هي الفتاة الجميلة التي لا تزال مطبوعة على صفحات قلبهِ صورتها اللطيفة. بيد انهُ لم يكن الّا اخفَّ من ارتداد الطرْف حتى بادر مسرعاً الى الفتاة ولمّا دنا منها لم يتمالك ان صاح: انيسة انيسة

فما سمعت الضريرة صوتهُ حتى شعرت في جسمها بهزَّة كادت تسقط بسببها مغشيّاً عليها ثم تركت يد الابنة الصغيرة ومدَّت ذراعيها الى الامام كأنها تطلب شيئاً وصاحت: حنّا. حنّا. وركضت الى ذاك الذي ناداها وفي يدها صليبٌ من الفضة اخرجتهُ من صدرها واشارت اليهِ بحركة لا توصف ووقعت بين ذراعي حنّا غنطوس. فحاول هذا ان يعانقها بمزيد الشوق فمانعتهُ بلطفٍ واذ ساءه امتناعها امسكت بيده وقالت:

يا حنّا. لا اقوى على مثل هذا النعيم... لكنني عاهدت الله... فهيَّا بنا الى المقبرة فلم يدرك الرجل لها غايةً. غير انَّهُ فهم من لهجتها انَّ لذلك سبباً خطيرًا فلبى

طالماً. وسار بها الى المقبرة وهو لا يبالي بالقرويين الذين تواردوا من كل صوب واحدقوا بهما

فمضت به انيسة الى احدى زوايا المقبرة ودنت من بلاطة ضريح قد غار نصفها تحت التراب فاومأت بيدها اليها وقالت: هنا رقدوا. ففهم مغزى كلامها وانحدرت من عينيه الدموع

فاردفت انيسة قائلة: اتذكر يا حنا ملتقانا هنا في يوم من ايام الربيع لخمس وعشرين عاماً مضت. لقد كنت في تلك الايام اتمتع بنور الشمس . . . فكانت الطبيعة حينئذٍ كأنها في جذل والزهور تبسم عن ثغرها الفتّان بين القبور والطيور فوق اشجار المقبرة تغرّد طرباً. ونحن وحدنا كنّا فريسة الاحزان. أوَتذكر ذلك ?

— اذكره كأنهُ جرى يوم امس

— كنّا نذرف الدموع لانك كنت عازماً على السفر الى الاقطار الشاسعة. فاستحلفتني بحق امّك التي احببتها كأمّي . ان انتظر رجوعك فوعدتك بذلك وقبلت منك عربوناً على العهد بيننا هذا الصليب الفضي. أتذكر يا حنا

فلم يُحِر الرجل جواباً وكادت تخنقهُ العبرات. وهو الذي لم يعيأ بالاخطار والاهوال اصبح يبكي وينشهق كالطفل

فقالت انيسة : لم يمض عام الّا جئتُ الى هذا المقام في تاريخ يوم سفرك لأجدد العهد. وقد جددتهُ اكثر من عشرين مرَّة. ولو طالت غيبتك ايضاً لما أخلفت لك عهداً ولا ظننت بك سوءًا . واليوم لا يسعدني الدهر بان امتّع برآك عينيَّ بيد انني اجدك قريباً مني واسمع صوتك الشجي كمن ذي قبل. فكفاني نعماً يا الهي. وما انا باهل لمثلها نعمة. فلنشكرنّ الله يا حنا على انهُ جاد بجمع شملنا بعد مرّ الفراق. هيّا نجثو ونستمطر غيث الرحمات على من رقدت هنا تحت الثرى وهي ترانا من العلى وتستمدّ لنا البركات

قال هذا وجثت على ركبتيها وثمّت بلاطة الضريح فاقتدى خطيبُها بها. فهتفت قائلةً: صلِّ صلِّ فقد عاهدت الله على ذلك

ثم رفعت يديها نحو السماء، وصلّت بصوتٍ منخفض ثم نهضت ونهض حنا فعانقتهُ وضمّتهُ شديداً الى صدرها فخارت قواها لما عراها من التأثر ووقعت بين يديه. ولولا دموعها المدرارة وتبسّم ثغرها لخيّل للرائي ان روحها فارقت جسدها

وكان بطرس الصغير ينظر بفرح الى هذا المشهد ويصفّق بيديه طرباً ويصيح قائلاً: هذا حنا الطويل. هذا حنا الطويل

(ستأتي البقيّة)

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

١٠

في ذات صباح من أيام تموز — وقد مضى نحو الشهر على ما سبق ذكره — كانت العربة العمومية المعروفة بالدليجنس تصعد كالعادة فوق ربى لبنان من بيروت الى دمشق. فوقفت عند خان الشيخ محمود ريثما خرج منها شابان في مقتبل العمر عليهما شارات الحظ وملامح السرور وفي يمين كل منهما عصاً ضخمة اعدَّاها ليستعينا بها على السير في الجبل

فوقفا برهةً يسرّحان الطرف في تلك الربوع التي كستها الغزالة عند بزوغها حلَّة الانوار ونظم لها الندى من اللآلئ عقودًا ولبثا ينفثان من صدرهما هواء المدينة ويستنشقان بتنعّم نسيم الجبال البليل فتنتعش منها الارواح والابدان

ثمَّ ثنى كلٌّ طرفَيْ بنطلونهِ فوق حذاء متين الصُّنع مهيَّأً للمشي في الوعر وسارا بهمّة في تلك الطريق التي تراكم فيها التراب. وهما يتداولان الحديث بحماسة ولا يشكّ من يسمعهما انهما من ارباب القلم ورجال الادب

وما زالا يمشيان بنشاط ينعشهما نسيم الصباح ويدفعهما التحمّس واذا باصغر الشابَّين توقف عن السير وصاح برفيقه: ألا أنصت يا هذا

وكان طرق مسامعهُ نغمات الزمّارات والدفوف صادرة من الوادي يتخلَّلها حينًا بعد حين طلقات البنادق

فقال لهُ رفيقه: وهل من عجب فهؤلاء القرَوِيُّون اطاعوا اليوم داعية الافراح. ويحق لهم ان يتناسوا حصَّة اكدار الحياة

فاجاب قائلًا: لا انكر ذلك. على اني اودّ لو اعرف الداعي الى مثل هذه المظاهرات مذ لاح الصباح. فانني راجعتُ البارحة قبل مغادرتنا بيروت تقويم السنة فلم اجد لعيدٍ ذكرًا في هذا الاسبوع وقد مضى نحو العشرة ايَّام على عيد مار الياس. فيا تُرى ماذا جرى. وهنا ادَّى السير بالشابَّين الى خان ابي القريَّة الذي عرفناهُ قبلًا ولم يكونا يجهلانهِ. فقال اكبرهما:

لقد مشينا نحو الساعتين فبلغ منى العطش مبلغًا. هيًا بنا نروي الغليل في هذا الدكان ونأخذ لنا من الراحة نصيبًا ونغتنم الفرصة لنسأل الدكاني عن الخبر اليقين

فما ولجا الدكان الّا قهقها ضحكًا فانهما شاهدا صاحبنا الدكاني يخطر في ملابس العيد فيسحب على الارض ذيل سروال لعب الهواء بإثنائهِ فنفخهُ كالقلوع. وكان لابسًا صدريّة من المخمل الاحمر مزركشة بالحرير وفوقها زنّار عريض كثير الالوان

فقابل ضيفيهِ بابتسام القوز. ولم يبادر الى خدمتهما بل بقي يتعثّر باذيالهِ. وقد لاحت عليهِ علائم السأمة والكدر فصاح: مَلَكة. ملكة. عجّلي. فاني اسمع صوت الدفّ. يا لله. انّ العيد سيفوتني بسبب هذه المرأة

فبادرت ملكة تحمل سلّة من الزهور. وما كان اجملها في خمارها الازرق البسيط وثوبها الورديّ المتّسع ونطاقها الحرير الاسود لا يشين صورتها قبعة كبيرة ولا يخفي ساعديها أردان عظيمة منتفخة كالتي تألفها نساء اليوم

فلم يكن كلمح البصر الّا قدّمت مَلَكة للشابّين شرابًا مبرّدًا ثم مضت لتنظر آخر نظرة في ملبوسها

فعيل صبر الدكاني وصرخ: ملكة. وحياة أبي اذا لم تحضري تركتكِ وسرتُ وحدي

وبينما الشابان يرويان الغليل ويتبسّمان مما يسمعان ويريان اذ لاحت منهما إلتفاتة فابصرا على الجدار صورة نبوليون عليها من الالوان اصناف وهي اغرب الهيئات

فصاح احدهما بالدكاني سائلًا: ألا بربّك يا هذا ما حداك الى تعليق الصورة في الجدار على تلك الحالة. أوَخطر لك ان تُبقيها ابدَ الدهر

فاجاب الدّكاني وهو يتبسّم ابتسامة معنويّة: نعم نعم. فليضحك من شاء فهي مبدأ ثروتي وبسببها صرتُ اربح سنويًا ثلاثين ليرة

١١

وعندئذٍ سُمع طلقات بنادق كثيرة دفعة واحدة ارشكت ان تُطير الكأس من ايدي الشابّين فصاح الدكاني بحنَق: يا لله قد دارت افراح العرس. ويل هذه المرأة لا شكّ انها تضيّع عليّ الوقت وتحرمني من العرس

فسألهُ اكبر الشابّين. بربّك يا عمّ الا أخبرتنا بايّ عيد تحتفلون اليوم وما الداعي لمثل هذه الحركة في ضيعتكم

فاجاب الدكّاني: داعٍ عظيم مهمّ فوق العادة. ولا شكّ ان جوانب بيروت تذكره

— هل زاركم المطران ؟ فأني اسمع جرس الكنيسة يقرع منذ ساعة

— ما حزرتَ

— أقدم عليكم القنصل ؟

— بل افضل من القنصل

— فاذن متصرّف لبنان. على انهُ منذ اسبوع يتجوَّل في شمالي لبنان بجهات الارز ولا اخالهُ ألا باقيًا هناك

— انت بعيد

— فلم يبقَ ألّا والي سوريّة. لكن بلغنا انهُ اليوم في نواحي طرابلس. ألا بحقّي يا عمّ أفدنا عن الحقيقة وخلّصنا

— الحكاية من اغرب ما يكون. ما سمع احد بمثلها. فلو كنتم تعرفونها انتم الذين تؤلفون الكتب لأغنتكم عن اختلاق القصص. وهذه الصورة لها علاقة شديدة مع قصّة انيسة الضريرة

فقال اصغر الشابّين منذهلًا: انيسة الضريرة ؟

— أنعم بهذه القصّة مُلحقًا لرواية وردة المغرب

فصاح رفيقه باسمًا: على رسلك ايها الشاعر ولا تستقلّ بالقصّة وحدك. فالمثل يقول: كونوا اخوة واقتسموا قسمة الحقّ

— لا تتخاصمنّ على القصّة قبل ان تسمعها. قال ذلك والتفت الى الدكّاني وتوسَّل اليه قائلًا: بحياتي عنك يا عمّ تروي لنا هذه النادرة ونحن نعدك بان نقدّم لك نسخة منها مطبوعة

فصاح الدكّاني: ذلك مستحيل في هذه الساعة. فاني مستعجل... وها امرأتي وصلت والحمد لله. تعالا معنا الى الضيعة وانا اخبركما على الطريق بكل ما جرى واذكر لكما هذه الحكاية

وكانت المرأة قد دخلت تخطر في ثوب العيد. فاندفع الدكّاني يجري وقد جذب معهُ الشابّين واخذ يروي لهما مع التفاصيل قصة حنًّا الطويل وانيسة الضريرة وهما يعيرانه اذنًا صاغية وقلبًا واعيًا. والمرأة تتبعهم ولا تغفل ذكر نبذة او ابداء ملاحظة في اثناء الحديث

• فاعلموا ان حنّاً غنطوس بعد موت والديه لم يكن لهُ ملجأ فانتقل الى بيروت طلباً للرزق ولمّا ضاقت عليهِ المذاهب دخل في مركب انكليزيّة بصفة قوّاد وهكذا مرّ في اسفاره بكل موانئ البحر المتوسط وبلاد الانكليز. ففي ذات مساء كانت هذه المركب مارّة بمضيق جبل طارق فاصطدمت بمركب اخرى فانفلقت ولم تلبث ان ابتلعها اللجج قبل ان تتمكّن من الوصول اليها المراكب التي بادرت الى نجدتها . ولم ينجُ الّا بعض البحارة

• وبعد ايّام قلائل انتشر الخبر في كل الاصقاع وطار الى جبال لبنان وعلم اهل ضيعتنا بالمصاب واعتقدوا جميعهم الّا انيسة بموت حنّاً الطويل غرقاً. وفي الواقع انهُ لم يمت بل كان في عداد من سلم من البحّارة. وعاد الى اسفاره. فقادتهُ الى رأس الرجاء الصالح. وكنتُ لا تسمع في تلك الايام الّا من يحدث باخبار الترانسفال ومناجم الذهب والالماس فيه . فخطر لصاحبنا ان يقصد تلك الوجهة طمعاً في الكسب

ففي بادئ الامر قاسى من الاكدار والاهوال ما لا يوصف لكنَّ الأيّام كانت قد حنّكتهُ وشدّدت عزيمتهُ وزادتهُ خبرةً في الحدادة وعلم الحيل التي يسميها الفرنج ميكانيك كما سمعنا مراراً من السيّاح الذين يزورون هذه البلاد. فاشتغل عند قبيلة البوير وزاول مهنة تصليح الاسلحة وادوات الفلاحة. حتّى ادّت بهِ الاحوال الى مدينة انبرنا عنها وقد فات اسمها عن بالي فعرض خدماتهِ على شركة هناك تشتغل باستخراج الذهب والالماس وهي من اعظم الشركات فقبلتهُ. والعبيد اهل تلك البلاد لا حقَّ لهم على ما يظهر بامتلاك الاراضي ولا يسوغ لهم الّا الاشتغال في المناجم بصفة فعلة ولا يقبضون اجرتهم ذهباً . وكل وكلاء الاشغال يجب ان يكونوا من البيض ولاسيا الناظرين في المناجم لانّ العبيد الفعلة يسعون جهدهم في اخفاء شذرات الذهب والالماس

ولمّا وصل حنّاً الى تلك البلاد كان عدد البيض دون القليل فلذا قبلتهُ الشركة مع الشكر ودفعت لهُ راتباً مهمّاً وعلاوةً على ذلك كانت تعطيه خُمس الالماس المهرّب الذي يكتشف عليه. ولمّا كان قنوعاً في معيشتهِ صادقاً في خدمتهِ مجتهدًا في اعمالهِ لم يلبث ان جمع كميّة من المال وافرة وقد كان حاصلاً على ثقة واعتبار مخدوميهِ وحبّ العبيد المشتغلين تحت امرتهِ . وليس من طبعهم حب البيض

ولمّا ثار العبيد كان هو من النزر القليل الذين سلموا وبقي بيتهُ سالماً محفوظاً على

حين ان منازل مديري الاشغال والمستخدمين أحرقها الثائرون . ولما هدأت الخواطر وكان عنده رأس مال مهمّ عزم على الشغل لحسابه فاشترى قرب المدينة اراضي مهجورة وبعد الكدّ ومعاناة الاتعاب اسعده الحظ بالاكتشاف على معادن ذهبية

ولم تمض سنوات قليلة حتى اصبح من ارباب الملايين وكانت نفسهُ لا تزال تحن الى بلاده . فترك اشغاله وجمع ما عندهُ من المال وقفل راجعاً الى سوريّة . وقد مضى عليه شهر كامل في ضيعتنا هذه مسقط رأسه ونيها جمتهُ الايام بخطيبته انيسة الضريرة التي صبرت على الفراق اكثر من عشرين سنة . اما باقي القصة فستعلمانه اليوم . . . »

١٢

كان الدكاني يسرد على الشابين تلك الاخبار مع التفاصيل وهو يلهث تعباً وما أتى على آخرها حتى أعياه الجهد . لكنّ رفيقيه لم يهتما بما ذكر بل طمحت ابصارهما الى غير ذلك من مُلحقات الحديث . فسألهُ احدهما قائلاً : على انك يا عمّ نسيت ان تخبرنا عن العلاقة بين قصّتك وصورة نبوليون المتعلقة على جدار دكانك

فاجاب قائلاً : الحق معك . فاعلما ان حنّا الطويل دفع لي ثمنها كية من الدنانير ولا يزال كما اخبرتكما يدفع لي ثلاثين ليرة في السنة على شرط انني أبقيها كما كانت فيما مضى قبل سفره وكما رأيتماها في محلّها . فانهُ تترّع عينهُ برؤآها وتطيب نفسهُ بذكر الايام السالفة

ولا يخطرنّ ببالكما انهُ اكتفى بما احسن اليّ بل عمّ فضله الجميع . وليس حنّا الطويل اوّل مسافر عاد الى بلاده . فان كثيرين بعد ان جمعوا المال رجعوا الى ضيعتهم ولكن لم يهتمّوا بغير نفسهم فاشتروا الاراضي وبنوا البيوت الفاخرة امّا حنّا فانهُ فعل ما لا ننساه على طول الزمان . لا شكّ انكما رأيتما اساس بناء عند مدخل الضيعة فهذا مستشفى يبنيه للمرضى ومأوى للشيوخ العجزة . وهو عازم على تشييد مدرسة للصبيان واخرى للبنات

ومع ما هو عليه من الغنى الوافر لا تراه يتعجرف او يزدري باحد بل يتكلّم مع الصغير والفقير بكل لطف ويسلّم على الجميع بكل رقّة . وخلافاً لكل الذين يرجعون من البلاد لم يأخذ عن الاوربيين الا العوائد الحسنة وهو يقوم خير قيام بواجباته الدينية ويحضر الذبيحة الالهية كلّ احد وعيد ويصلّي بحرارة كأنهُ لم يخرج من ضيعتنا

وبعد ان اهتمّ بكلّ الناس افتكر في نفسه . فاشترى بيت مصيف كان بناء احد

تجار بيروت وسينتقل اليهِ مع انيسة وعائلة الحائك سركيس التي تبنّى كلٌّ ابنائها. ولم يغفل عن الختّار فارس بل اعطاه مالًا كثيرًا

واليوم يُعقَد لهُ الاكليل على انيسة. وهذا عيد عظيم لاهل الضيعة. والبرهان على ذلك انهم سيذبحون عشرة خراف وفي هذا الصباح سيحضر حنًّا قدّاسًا احتفاليًّا ليشكر الله على نعمهِ الجزيلة نحوهُ

وفي اثناء هذا الكلام وصل الشابّان الى القرية ولم ينتهِ بعد حديث الدكّانيّ غير انهما شُغلا عن سماع الختام بما وقعت عليهِ أعينهما

فكانت القرية قد برزت باجلى مظاهر الزينة وكانت ابواب المنازل والنوافذ كلها مزدانة بالزهور وبالخضرة وعلى البعض منها أشعار رقيقة تتضمّن الطف التواريخ. وكانت تخفق في كل جهة الاعلام المختلفة الالوان

وعلى باب حنّا الطويل قد كُتب بالزهور اسم العروسين على اجمل منوال

امّا عن ازدحام الناس فحدّث ولا حرَج. فكانت جماهير القرويّين قد بادرت من جميع الضياع والمزارع المجاورة ليحضروا مثل هذا العيد النادر المثيل بينهم (ستأتي البقيّة)

شتّى

معنى اسم البرمكيّ

كثيرًا ما بحثتُ عن معنى هذا الاسم في اللغة العربية وفي كتب المؤرخين من العرب فلم اعثر على ما اشفي بهِ الغلّة الى ان وقع بيدي كتاب فارسيّ ذكر فيهِ معنى هذا الاسم فقال ما محصّلهُ: ان نسب جعفر الذي هو ابو خالد البرمكي يتّصل بملوك فارس وكان في اوائل أمرهِ مجوسيًّا يعبد النار في نوبهار بلخ. فلمّا اراد التديُّن بدين الاسلام اخذ معهُ خدمَهُ وحشمهُ وحامّتَهُ (عائلتهُ) وتوجّه بهم الى دمشق وكانت يومئذٍ دار ملك بني أميّة. وذكر في جامع التواريخ ان وصول جعفر الى دمشق كان في عهد عبد الملك بن مروان وقال جماعة من المؤرخين ان وصولهُ اليها كان في ايام سليمان بن عبد الملك. ولمّا رأينا ان الرواية الثانية للصحّة اقرب لم نعتمد على القول الاول. ولمّا قدم جعفر امام سليمان بن عبد الملك تغيَّر لون الخليفة وامر باخراجهِ من المجلس فتعجّب الحاضرون من صدور ذلك الحكم فقال لهم

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

١٣

وكان الشابّان يتنقلان بين الجموع فيُراقبان حركات الافراح ويسمعان الاغانيّ المطربة ولما دنا الموكب القادم من بيت حنّا الطويل بادرا الى أكمة هناك يشرفان منها على الصفوف فلا يفوتهما من المشهد شيء.

واوّل ما لاح لاعينهما عشرون ابنة بين السادسة والعاشرة من العمر متّشحات بالحلل البيضاء وعلى رؤوسهنّ اكاليل الورد وفي ايديهنّ طاقات الزهور وعلى ثغورهنّ ابتسامات الصبا

فاخذ المشهدُ من اصغر الشابّين كلَّ مأخذ وهاج خاطرهُ فهتف قائلًا: لله ما ابدع ما نراه فانّ عيني لم تقع على مثل هذا في المدن المظيمة. سقى الله جبال لبنان فكأنما هي مأوى الجمال والصفاء. ورونق الحياة ونضارة الشباب والافراح. لعمري ان هذا المنظر اخذ بمجامع لبي فيا ليتني استصحبتُ آلة التصوير الشمسي لكنت اخذت عن هذا الموكب رسمًا تقرُّ به العيون. على انهُ لا يفوتني ولا بدَّ ان انظم فيه شعرًا يبهج القلوب.

ثم ظهرت صفوف صبايا في مقتبل الشباب يرفلنَ في الحلل الملوَّنة وتتدفق الحياة من وجوههنَّ النضيرة ماء ونورًا ويعلو جبينهنَّ الوشاح من الحياء اكليل زاهر. وبعدهنَّ طلعت نساء الضيعة في ثياب تليق بمقامهنَّ وفي مقدمتهنَّ امرأة الدكاني تختال زهوًا وفي ايديهنَّ المزاهر ينثرنَ منها الروائح الزكيّة

ووراء الصفوف حنّا الطويل وانيسة الضريرة تستند الى ذراع خطيبها كانها تاءت بها الافراح بعد ما قاست من اشكال الهوان وانواع الشقاء مدَّة خمس وعشرين عامًا. وكانت تفوح من ملابسها وهيأتها ارواح الحشمة. وعلى صدرها الصليب الفضيّ يلمع دليلًا للافراح كما كان في الضرَّاء عربون الرجاء.

وكان يتبع الخطيبين سركيس الحائك وامرأته واولادها والجميع في الملابس الفاخرة

وقد بلغ الفرحُ منهم مبلغاً . واصغر الاولاد طرس يمشي مرحاً وينظر نظر السرور الى كلّ من حواليهِ

وما اعظم ماكانت دهشة الشابين اذ وقعت عينهما بعد ذلك على رهط من الشيوخ هم من بقايا الزمان الماضي بيض الشعور او صُلع الرؤوس قد احنت ظهورهم الايام فاستعانوا على السير بالعصا او دبُّوا حتّى خُيِّل للرائي انهم تطيع يدفعهم الموت الى هاوية القبر . وكان يتقدَّمهم ابو نصيف ذلك الشيخ الاصمّ الاعمى الذي عرفناهُ في اوّل القصة يقودهُ جَدّ معلم المدرسة وكل منهما قد انحنى حتى لثم التراب

وهؤلاء الشيوخ وعددهم قد عرفهم حنّا الطويل قبل سفرتهِ وعرفوهُ وشهدوا اعمالهُ واقرّوا بفضل شجاعتهِ ايام كان في ضيعتهِ ينافس اقرانهُ في اقتحام الاخطار

فدخلت تلك الجموع الكنيسة وقد ضاقت عنهم فبقي الشابّان في الخارج مع من تبقّى . وما لبثا ان سمعا التراتيل على وقع الصنوج والاجراس وزفَّ اليهما النسيم نفحات البخور فعلما ان القدّاس الاحتفالي قد بدأ . وبعد تلاوة الانجيل المقدّس ألقى الكاهن عظة ملائمة لمقتضى الحال . وكيف لا يغتنم مثل هذه الفرصة السعيدة وهو الذي عرف حنّا الطويل في حداثتهِ وهو الذي ارشدهُ واعدّه للمناولة الاولى وهو الذي زوّده بركة الابوية ساعة رحيلهِ عن الضيعة منذ خمس وعشرين عاماً . فضلاً عن ان شيخوخة هذا الكاهن الجليلة وفضائلهُ كانت تجعل لكلامهِ وقعاً عظيماً في النفوس . ولم تكُ عبارتهُ منسجمة لكنها صادرة عن قلب مُفعم بشعائر التقى والوداد فأثّرت في قلوب السامعين ايّ تأثير حتى ذرفت اعينهم الدموع ولاسيَّما تلك الابنة الضريرة فقد انهملت منها العبرات مدرارة عند سماعها ذكر خطيبها واسفاره وعودته سالماً بعد مرّ الفراق وتفانيه في خدمة الله والقريب

وفي الختام استمطر الواعظ بركات السماء على الرجل الفاضل ذي الايادي البيضاء الذي عمَّ صنيعهُ كل اهل ضيعته . ومن يصف مشهد الكنيسة في تلك الساعة المهيبة فكنت ترى الجميع جاثين على الارض يضجّون بالدعاء الحميم قارعين الصدور ومجاهرين بالصلاة لله ان يطيل بقاء هذا الرجل المحسن ويحفظهُ مع عروسه في رغد ونعيم ليهنأ بهما اهل الضيعة اجمعون . وقد اشترك مع الحضور كلّ من قضي عليهم بالقيام خارج الكنيسة

فصاح اكبر الشابّين وقد اخذتهُ هيبة المشهد : ما ابدع هذا المنظر لعمر الحق ان هذا الشيخ الجليل بلغ في كلامهِ مبلغاً من البلاغة عظيماً وهو لا يدري . فقد صدق الاقدمون

في قولهم « من اراد فصاحة فحسبه ان يكون لهُ قلبٌ شعُور »

فلم ينتبه رفيقه الى قوله السديد بل صاح: لا بدَّ لي من الوقوف على جليّة هذه القصة. رضيتَ بذلك ام عذلتني. فقد عقدت النيَّة على التعرّف الى حنَّا المذكور. فانَّ النفس تحدثني بنشر هذه الرواية الرائعة

قال الكبير: ما كنت لاعذلك في ذلك . . . ولكن على رسلك. ها قد فرغ القوم من الصلاة وتراهم خارجين. انظر الخمّار فارس عبُّود والحائك سركيس

١٤

وكانت الجموع قد اصطفَّت وعادت الى بيت حنَّا من حيث اتت. فدنا الشابَّان من الخمَّار فارس وسألاه ان يقدّم بطاقتهما الى صاحب المنزل فلبّي هذا طلبهما عن طيبة خاطر فأدخلا الى القاعة الغاصَّة بالمدعوّين واقبل عليهما ربُّ البيت يصافحهما بوداد. وقال لهما: يظهر يا سيدي من البطاقة التي تكرَّمتما بها انكما من رجال الادب وارباب الصحافة ولا ريب انكما ترغبان في مقابلتي خصَّة على انفراد

فقال كبيرهما: نحن يا سيدي قد اغتنمنا اوقات العطلة لنضرب في نواحي لبنان وقد ساقتنا التقادير الى هذه القرية واسعدنا الحظ ان نشهد يوم نعيمك فجئنا نشترك مع دريك في تقديم اخلص التهاني لك. ومع ذلك فاننا نتمنّى لك ان تكرمت علينا بزيادة الايضاح على ما عرفناه

فتبسّم حنَّا وقال: ادركتُ المقصود. فانكما لا تغفلان حتى في زمن العطلة عن اجتناء الاخبار. ونِعمًا تفعلان. وان كان لا بدَّ من نشر مقالة في ما شهدتما اليوم فاني ارجو من فضلكما امرًا واحدًا

— مُر فأمرك مطاع وكلّ حاجةٍ مقضيّة

قال حنَّا: انَّ وجائي ان توقظا القرَّاء من سنة الغرور وتستلفتا الابصار وتنبّها الخواطر الى ما وراء المطامع من الخيبة والفشل ووراء الاسفار في طلب المعادن من الاخطار. اجل ان الله وفقني فتمكنت من احراز نصيبٍ من المال وافر. فالناس ينظرون بظاهر ما يرون ويتعامون عمَّا كبدت في سبيل ما جمعتُ. والله اعلم بما قاسيت من المتاعب والاكدار والاهوال حتى زهقت الروح قبل الحصول على النزر اليسير

هذا وقد خطر على بال حنَّا شقاؤه الماضي فصاح: آه ما اتعس مثل هذه الحياة. فانَّ

الرجل يقضي عليه ان يتجرد نوعاً ما من حريته فيأجر ذاته للغير ويطأطئ رأسه ويحني ظهره تحت الاثقال ويقف بالابواب متسوّلاً ويسوم نفسه ذلاً فوق ذل صابرًا على قرس البرد ولفح الحرّ معرضاً روحه لانواع المخاوف والاخطار . وما كنت لاعود الى مثل تلك الحال ولو أعطيت مال قارون فاني يشهد الحقّ لولا عون الله ينصرني ونور الامل ينعشني لمتّ كمدًا او قتلت نفسي يأساً . وطالما سألت الله ان يمنّ عليّ بالرجوع الى بلادي ولو كان قوتي الخبز والزيتون فاقضي العمر سعيدًا في فقري واعيش حرًّا على جبال لبنان الجميلة تحت سمائه البديعة

ثم أشعل لفافة من التبغ واردف حديثه بقوله : لقد مرّ الآن بخاطري ذكر حادث لا يسعني الّا ان ارويهُ لكما فتُكرما بالاصغاء

وكان الشابّان آذاناً تسمع واعينهما شاخصة الى حنّا ولسان حالهما يرجوه ان لا يبخل عليهما بسرد كل ما لديهِ من الاخبار والتفاصيل فقال : لمّا كنت في اوائل ايّام دخولي الى بلاد الترانسفال لم يكن لي ادنى خبرة باخلاق اهلها . ففي ذات مساء عدت الى منزلي بعد الفراغ من شغلي وكنت يومئذٍ ناظرًا على احد المناجم . وكنتُ أُمرتُ بالذهاب في الغد الى مدينة الرأس لقضاء مهمّة كلّفني بهـا مدير المنجم . ولمّا خلوت في منزلي استولت عليّ عوامل السرور مما احرزتهُ من المال بجدّي واقتصادي . وقوي فيّ الامل ان افوز بثروة طائلة بها ابلغ المنى . فمرّ ببالي ذكر وطني واهلي وخلاّني وطابت نفسي بذكري انيسة

فغصتُ في بحر الاوهام والاماني وفكرت في رجوعي الى لبنان العزيز وبيتٍ ابنيه فيهِ وهدايا أُتحف بها انيسة وعيدٍ اقيمهُ لنا يوم اكليلنا . وبقيت على تلك الحال ابني من الآمال قصورًا شاهقة وقد سها عن بالي ان الليـل قد ارخى جلابيبهُ وليس من نور يضيء في ظلمائه سوى نار سيكارتي

فاذا بالباب يطرق . فصحت بالطارق أن ادخُلْ

فولج زنجيّ ووقف مترددًا يجيل نظره في اكناف الغرفة كانهُ يخشى رقيباً . ثم همس اليّ قائلاً : كلمة يا سيدي . لان الوقت ضاق بي . ولكن كلمة تتعلق عليها ثروتك وحياتي . انني احد الفعلة المشتغلين في المنجم الخامس . كنت اليوم عائدًا من شغلي فعثرت في طريقي بقطعة من الالماس لا نظير لها عند الملوك . وجدتها بين انقاض منجم مهجور . فهي ملكي ولي حقّ التصرّف بها . ولكن لا سبيل لي الى ان ابيعها في هذه البلاد . لانّ الزنوج الفعلة يتهمونني بانني سرقتها . وكذلك يتعـذّر عليّ ان افرّ هاربًا اذ لا مال عندي وابواب

النجاة مغلقة دوني. فيشق عليَّ ان تبقى قطعة الالماس عندي من غير جدوى. وقد فضَّلت ان ابيعها وانتفع بثمنها. ولمَّا كنت اسمع انك كريم النفس رؤوف بالزنوج لا تدي. مالمتهم حملني الامل ان اوافيك واعرض عليك تلك القطعة الفاخرة فتحصل بها على الغنى ولست اسألك لقاءها الَّا ليرة استرلينية

فما سمعت كلامهُ الَّا اعتراني الذهول وبقيت جامدًا كالصنم. امَّا الزنجي فاخذ يقلّب بين يديه قطعة الالماس بحجم الجوزة الصغيرة وهي صافية الماء خالصة على زعمهِ ليس فيها حبة رمل

ثم قال: وحقك يا سيدي لقد وقع تحت يدي اكثر من الف قطعة كبيرة ولكنَّي لم اجد في عمري اصفى منها. فمثلها تزدان تيجان الملوك. انت يا سيدي من البيض وليس من يتهمك بالسرقة. فان جدتَ عليَّ بالنزر اليسير فزتَ بالمال الكثير حلالاً

١٥

فاغراني امل الربح واعطيت الزنجيَّ كل ما كان عليَّ من الدراهم واخذت منهُ الحجر الكريم وفي الغد سرت في رفقة قاصدين مدينة الرأس ودليلنا رجل من الزنوج

وفي ثاني الايام خرج علينا جماعة من الزولوس فصاح الدليل: لا سبيل للمقاومة يا سيدي فان عنا عنا الاعداء، وقنعوا بالمال غنيمة تسلَّمهم كل ما معنا. فانَّ ذلك ازهد

فصحت: كيف زهيد؟ لا لستُ اسلَّم. وفي الحال اطلقت عليهم المسدَّس فجرحت منهم واحدًا وانقضَّ علينا الباقون كالكواسر فقتلوا الدليل وكل رفقائي وقدَّر الله ان بقيتُ حيًّا ولكن مثخنًا بالجراح. فاخذ زعيم الزولوس سلاحي واقتسم رجاله ثيابي وامتعتي ومالي. وقد ترعت امرأةٌ منهم قطعة الالماس وعلَّقتها بعنق ولدها ظنًّا منها انها حرز حريز

وما مضى عليَّ في الاسر ايام حتى شفيت من جراحي وعادت اليَّ القوى والنشاط. وقد اختبرتُ بنفسي حينئذٍ ان الصنيع لا يضيع. فانهُ كان بين الزولوس رجل قد اشتغل من ذي قبل مع فعلة المناجم عندنا وكنت احسنت الصنيع اليهِ مرارًا. فهو الذي توسل الى زعيم القوم ليعفو عن حياتي وهو ايضًا الحَّ اليهِ بعد شفائي ان يُطلق سراحي ويردَّ عليَّ ثيابي وبعض مالي.

فطلبت ايضًا قطعة الالماس ولكن المرأة ابت ان تردَّها عليَّ اعتقادًا منها انها تدفع عن ولدها كل اذى. فاخفيت ما بي واظهرت الجلد. ولمَّا جنَّ الليل خلوت بالولد فسددت

فاه وترعت الجوهرة منهُ وفررت هارباً على جناح الريح

وما زلت اصل السيرَ بالسُّرى وعوامل الخوف تتنازعني وانا ابتعد عن الطرق المطروقة ولا اجسر على المعاطاة مع الناس مخافة ان تُسلب مني الجوهرة الثمينة التي كانت في جيبي ويدي عليها دائماً لا تتخلى عنها. وقد وصلت بعون الله الى مدينة الرأس بعد معاناة المشاق والمخاوف. واولُ ما باشرتهُ اني بعثت برسالة برقية الى جبـل لبنان بواسطة صديق لنا في بيروت وفحوى الرسالة « ابشري يا انيسة فاني عائد اليكِ بالاموال الطائلة »

ثم سعيت في الوصول الى عميد الجوهريين اسألهُ عمَّا تساوي الجوهرة التي بنيتُ عليها الآمال. وكنت ادخل المخازن لاختار منها تحفاً أُهديها لانيسة واصحابي في لبنان ولم اكن ارضى بغير الاصناف الفاخرة. وطالما تبسَّمتُ استخفافاً عنـد ما كنت اسمع التجار يقولون ان الاصناف التي اشير اليها يزيد ثمنها الاضعاف عمَّن سواها

ولم يكن الّا ايام قلائل حتى شاع اني من اغنى خلق الله وفي الحال تقاطر اليَّ من كل صوب عدد وافر من ابناء وطني وخلَّاني ولم اكُ ادري بوجودهم في تلك الاصقاع قبل ان طارت شهرة غناي. وما اكثر من كان يدعوني حينئذٍ او يعرض عليَّ خدماتهِ

وكثر تحدُّث الناس عن ثروتي قائلين: ما اسعـد هذا السوري فانهُ عاد من مناجم الترانسفال بالقناطير المقنطرة

ولما اتيتُ عميدَ الجوهريين وعرضت عليهِ قطعة الالماس تأملها وبعد الفحص قال: ما اتقن الصناعة فيها. فلو عرضتها على بائع الحليّ الزجاجية اشتراها بعشرة شلنات امَّا انا فلا اشتري الالماس الكذّاب

ولا حاجة الى وصف ما المَّ بي عنـد ما ثبت لي ان الزنجيّ خدعني وباعني عوض الالماس زجاجاً. والله ادرى بحالي ساعة هبطت من شاهق القصور...

وبعد ان قمت بالمهمَّة التي كلفوني بـها عدت عاملًا الى مقرّي الاول في الترانسفال وعاودت اشغال الناظر في المناجم. وكم وكم وجب عليَّ من الكد والسهر وكم وكم تجشَّمت من الاخطار وركبت متون الاهوال حتى احرزت هذا المال الذي لا اجد لهُ قيمة غير اني استخدمهُ لخير وطني وراحة قرينتي

وكان الشابان لا تزال تحدثهما النفس في طلب الاخبار والاستفسار عن التفاصيـل

الكثيرة ولكنهما اطاعا داعي الادب . فامسكا عن السؤال وشكرا لصاحب البيت ما لاقياه لديهِ من الحفاوة والاكرام ثم استأذنا في الانصراف فشيعهما بكل لطف راجياً ان لا يبخلا عليهِ بالزيارة لدى عودتهما من السفر

وما خرجا وخلا لهما الجو الّا بادر اصغرهما وهو من الشعراء المجيدين فالتقط عن الارض عودين صغيرين فادبر عن رفيقهِ ثم اقبل عليهِ وقد برز من كلٍ من يديهِ طرف عودٍ وقال: هيَّا احزر

فقال رفيقه: اراك عجولاً في الامر

— لا بدَّ من التعجيل . هيَّا احزر . فنعرف من منَّا يكون صاحب الحق بايراد هذه الرواية

فسحب رفيقهُ احد العودين . فرمى الشاعر العود الثاني وقال متنهداً : انا الخاسر وانت الرابح

وهذا السبب ايها القارئ اللبيب في انك قرأت رواية انيسة الضريرة نثراً لا شعراً . ويا حبذا لو ربح الشاعر لكنت تقرأها في قصيدة عامرة الابيات رقيقة المعاني فتقول : انَّ من الشعر لدرًا

(تمت)

شتى

اكتشاف كتب خطيَّة في مصر

ورد في جريدة «وسيط الباحثين» ان العالمين غرنفل وهنت الانكليزيين قد اكتشفا في قرية البهنساء مستودعاً فيهِ مجلاتٌ وكتب خطيَّة قديمة باليونانية قد أُودع منها قسمٌ في متحف الجيزة بمصر وأُرسل القسم الآخر الى لندن . وقد اخذ العلماء يتألبون زرافاتٍ الى مكتبة البريتيش موزيوم لمطالعة هذه الكتابات الثمينة . ومما وجد بينها الى الآن من الآثار الجليلة الفصل الاول من انجيل القديس متَّى كتب في القرن الثالث للمسيح وفصلان من مجموع اقوال الرب (Λόγια) المنسوب للقديس باپياس احد الاباء الرسوليين قد كتبا في القرن الثالث عشر . ومن ذلك ايضاً اعمال كثير من خطباء اليونان وشعرائهم كان قسمٌ منها مجهولاً . ولا بدَّ من زمن طويل لقراءة هذه الكتابات لكثرتها . قيل انَّ ما ورد منها عاصمة الانكليز لا يقلّ عن ٢٨٠ صندوقاً